

الإسلام

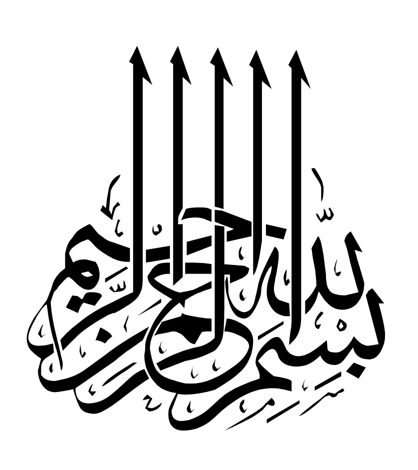
الدين العظيم

د. عبد العزيز بن محمد بن إبراهيم العويد

الأستاذ المشارك بقسم أصول الفقه

كلية الشريعة والدراسات الإسلامية

جامعة القصيم



عَنْ أَبِى سَعِيدٍ الْخُدْرِىِّ ﷺ قَالَ: خَرَجَ مُعَاوِيَةُ عَلَى حَلْقَةٍ فِي الْمَسْجِدِ، فَقَالَ مَا أَجْلَسَكُمْ؟ قَالُوا: جَلَسْنَا نَذْكُرُ اللهَ.

قَالَ: آللَّهِ مَا أَجْلَسَكُمْ إِلاَّ ذَاكَ ؟ قَالُوا: وَاللَّهِ مَا أَجْلَسَنَا إِلاَّ ذَاكَ.

قَالَ: أَمَا إِنِّي لَمْ أَسْتَحْلِفْكُمْ تُهْمَةً لَكُمْ، وَمَا كَانَ أَحَدٌ بِمَنْزِلَتِي مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَقَلَّ عَنْهُ حَدِيثًا مِنِّى، وَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَرَجَ عَلَى حَلْقَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ: «مَا أَجْلَسَكُمْ ؟ قَالُوا: جَلَسْنَا نَذْكُرُ اللَّهَ وَنَحْمَدُهُ عَلَى مَا هَدَانَا لِلإِسْلاَمِ، وَمَنَّ بِهِ عَلَيْنَا . قَالَ: آللَّهِ مَا أَجْلَسَكُمْ إِلاَّ ذَاكَ ؟ قَالُوا: وَاللَّهِ مَا أَجْلَسَنَا إِلاَّ ذَاكَ . قَالَ «أَمَا إِنِّي لَمْ أَسْتَحْلِفْكُمْ تُهْمَةً لَكُمْ، وَلَكِنَّهُ أَتَانِي جِبْرِيلُ فَأَخْبَرَنِي أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُبَاهِى بِكُمُ الْمَلاَئِكَةَ» .

رواه مسلم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف خلق الله أجمعين، وسيد الأولين والآخرين، وإمام الأنبياء والمرسلين محمد بن عبدالله، وعلى آله وصحبه، والتابعين له بإحسان إلى يوم الدين، وسلم تسليماً كثيراً .. أما بعد:

إن الله بحكمته البالغة وعلمه الواسع أمر عباده وخلقه كلهم بالديانة له وعبادته، ولهذه المهمة بعث الأنبياء والمرسلين منذ أبي البشر آدم عليه السلام وحتى خاتمتهم محمد عليهم جميعاً الصلاة والسلام.

وكان من حكمة الله تعالى أن ختم هذه الرسالات وأكمل هذه النبوات بمحمد ﷺ، فنسخ بدينه كل الأديان السابقة، وأمر جميع الخلائق أن تتعبد لله بالدين الذي بعثه به.

ولأن دين الإسلام هو خاتمة الأديان، فقد شرفه الله تعالى بخصائص ومزايا ومكارم ومحاسن فاق بها كل الأديان، وهذا الكتاب الذي بين يديك أخي الكريم هو إطلالة على شيء من صور عظمة هذا الإسلام كتبتها لنفسي ولإخواني والمسلمين أُعرف بها بنعمة الله علينا أن جعلنا مسلمين، كما كتبتها لغير المسلمين ليكون فرصة ليتعرفوا من خلالها على دين الإسلام وشيء من جماله ومحاسنه ومزاياه.

وأسال الله العظيم أن ينفعني به ووالدي وذريتي، ويرفعنا في الدنيا والآخرة، وأن ينفع به كل قارئ له إنه سميع مجيب.

والحمد لله رب العالمين.

د.عبدالعزيز بن محمد بن إبراهيم العويد
المملكة العربية السعودية ـ بريدة
ص . ب ٢٣٤٥١
Ab7538@hotmail.com

الإسلام دين رباني المصدر

مع تعدد الأديان وتكاثرها سواء السماوية أم الوضعية فإن الإسلام يتميز عليها كلها أنه دين سماوي مصدره من الله تعالى؛ ذلك أن الأديان الوضعية من صنع البشر الذين يصيبون ويخطئون، وتغلب عليهم شهواتهم الذاتية عند سن الشرائع، وأما الأديان السماوية السابقة للإسلام فقد طالها الاندثار أو التغيير والتحريف، فلم تعد كما أنزلها الله تعالى، ولذلك جاءت هذه الشريعة مبطلة لجميع الشرائع الوضعية الأرضية ، وناسخة لجميع الشرائع السماوية السابقة.

الإسلام بجميع أحكامه تشريع إلهي رباني لم يأذن الله تعالى لأحد من الخلق أياً كانت منزلته وقدره أن يشاركه في التشريع .

والله سبحانه وبحمده هو الذي خلق الخلق وأمدهم بالرزق، وبين الحكمة من خلقهم وهو عبادته وطاعته، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾[١]، وهو سبحانه العالم بهم وبأحوالهم وما يصلح لهم، فهو أعلم بهم حتى من أنفسهم ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾[٢]، وهو يعلم ما به تصلح أمور دنياهم وآخرتهم، فكان أحسن الأديان وأشرفها ما شرعه هو لهم سبحانه، كما قال سبحانه في القرآن

---

(١) آية ٥٦ من سورة الذاريات .

(٢) آية ١٤ من سورة الملك .

الكريم: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾﴾[(١)].

وصبغة الله هي دين الإسلام بجميع أعماله الظاهرة والباطنة التي أمر الله بها عباده، وبين الله أنه لا أحسن من هذا الدين ولا هذه الملة لمن تفكر وعرف الإسلام على حقيقته .

وحُكمُ الله وشريعته التي شرعها بنفسه لخلقه هي أحسن الشرائع والأحكام، كما قال سبحانه: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾[(٢)] .

ولهذا تفرد الله سبحانه بالتشريع، فكان دين الإسلام شريعته الخالدة، لم يأذن لأحد من الخلق أن يستعلي فيشرع من نفسه وهواه، وهكذا جاء التوجيه للنبي ﷺ ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾﴾[(٣)] .

لقد أمر الله نبيه محمداً ﷺ أن يتبع ما شرع له، فهو الخير والصلاح له ولأمته، وحذره من أهل الأهواء والشهوات الذين يقررون بلا علم، فإنهم يضرون الإنسان في دينه ودنياه .

والنبي ﷺ لا يملك حق التشريع، فهو نبي رسول مبلغ عن الله تعالى، وكفاه شرفاً منزلة النبوة والرسالة والتبليغ عن الله، فهو ﷺ لا يقول من ذات

(١) آية ١٣٨ من سورة البقرة .

(٢) آية ٥٠ من سورة المائدة .

(٣) الآيتان ١٨ و ١٩ من سورة الجاثية .

نفسه ولا يحكم بهواه حاشاه ﷺ، كما قال عنه ربه: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ [(١)].

فهو ﷺ ما يقول قولا عن هوى وغرض ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ أي: إنما يقول ما أُمر به، يبلغه إلى الناس كاملا موفَّراً من غير زيادة ولا نقصان، فلا يأمر أمته إلا بما أوحى الله إليه من الهدى والتقوى.

وسنته ﷺ التي يقولها لأمته هي أيضاً وحي من الله له يبلغها لأمته أنزلها الله عليه، وإن اختلف أسلوب الوحي بين القرآن الكريم والسنة: بأن كانت السنة من لفظه هو ﷺ إلا أنها صادرة من الله تعالى أنزلها الله على نبيه كما أنزل القرآن، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾ [(٢)].

ويخبر النبي ﷺ بهذه الحقيقة في قوله: «أَلاَ إِنِّي أُوتِيتُ الْكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ»[(٣)] فندرك أن سنته تشريع من الله تعالى.

وإذا كان هذا في حق النبي ﷺ في نفي التشريع عنه وهو أكمل الخلق وأشرف الخلق وأزكى الخلق، فمن دونه من البشر أحرى وأولى أن لا يكون لهم الخيرة في التشريع، بل نهاهم الله تعالى وحذرهم.

وإن اختصاص الله تعالى بالتشريع في الإسلام له منافع عظيمة تبرز عظمة هذا الدين الإسلامي وسمو تشريعاته.

---

(١) الآيات الأربع الأولى من سورة النجم.

(٢) من آية ١١٣ من سورة النساء.

(٣) رواه أبوداد – كتاب السنة – باب في لزوم السنة، وصححه الألباني.

فهي شريعة ربانية حكم بها وقضى بها من خلق الخلق، وهو أعلم بمن خلق وما يحتاجون .

وهي شريعة صدرت من الله المستحق للعبادة دون من سواه .

والإسلام لما جاء من الله تعالى كان ديناً كاملاً شاملاً لا تعارض فيه ولا اضطراب ولا تناقض، بخلاف ما لو كان من البشر المخلوقين الضعفاء ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾[1] .

والإسلام حين يجعل الشريعة لله وحده، يخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، وحين يتساوى العباد بالتكليف من الله فهم يصدرون عن شريعة الله، تتحرر هذه الشريعة من أهواء البشر وضعف عقولهم وقصور نظرهم .

وبالشريعة الربانية يتحرر البشر من سلطة البشر إلى الخضوع والتسليم لرب البشر، فيكونون سواسية يتوجهون كلهم لخالقهم عن رضا وطواعية .

كما أن ربانية هذه الشريعة يسهل الانقياد والتسليم، دون تمنع ولا تردد؛ لأن العبد يعلم أن الذي أمره هو الذي خلقه وهو المتصرف فيه، وحينها يكسب العبد الإيمان الكامل، كما قال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾[2] .

---

(١) آية ٨٢ من سورة النساء .

(٢) آية ٦٥ من سورة النساء .

الإسلام الدين الحق

الإسلام هو الدين الحق الذي ارتضاه الله للبشرية، فلا دين لله سواه.

قال الله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ (١)، وهذا إخبار من الله تعالى بأنه لا دين عنده يقبله من أحد سوى الإسلام الذي بعث الله به محمداً ﷺ.

والإسلام ببعثة محمد ﷺ سد جميع الطرق إلى الله إلا من جهة محمد ﷺ، فمن لقي الله بعد بعثته ﷺ بدين على غير شريعته فليس بمتقبل، بل هو من الخاسرين، كما قال تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ (٢).

ومعنى الآية: أن من يدين لله بغير دين الإسلام الذي ارتضاه الله لعباده، وأرسل به رسوله محمداً ﷺ فعمله مردود غير مقبول؛ لأن دين الإسلام هو المتضمن للاستسلام لله إخلاصا وانقيادا لرسله، فما لم يأت به العبد لم يأت بسبب النجاة من عذاب الله والفوز بثوابه، وكل دين سواه فباطل.

ودين الإسلام هو الدين الحق الذي رضيه الله تعالى للبشرية لتنقاد له وتتعبد لله تعالى به، كما قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ

---

(١) من آية ١٩ من سورة آل عمران.

(٢) آية ٨٥ من سورة آل عمران.

عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾[١] أي رضيه واصطفاه لنا، فلا يرضى لنا بعد بعثة محمد ﷺ ديناً سواه .

إن هذه الحقيقة التي تقول إن دين الإسلام هو الدين الحق دلت عليها أمور كثيرة جاءت بنصوص القرآن الكريم والسنة النبوية من كلام المصطفى الأمين ﷺ، وليس هذا فقط، بل حتى الأنبياء المرسلون قبل محمد ﷺ بشروا بدين الإسلام وأمروا أقوامهم إن هو بعث .

فهذا نبي الله عيسى عليه السلام يبشر بني إسرائيل بمحمد ﷺ ويدعوهم إلى اتباعه حين يبعث:

تأمل قول الله تعالى عن نبيه عيسى عليه السلام: ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ ﴾[٢] .

فعيسى عليه السلام كما في الإنجيل جاء بني إسرائيل داعيا لهم لطاعة الله، وباعثاً فيهم البشارة ببعثة محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين الذي لا رسالة بعده ولا نبوة .

وكما جاءت البشارة به في الإنجيل فقد جاء خبره في التوراة، فاليهود ومن كتابهم يعلمون ببعثة محمد ﷺ، كما قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴾[٣] .

(١) من آية ٣ من سورة المائدة .
(٢) آية ٤ من سورة الصف .
(٣) من ١٥٧ سورة الأعراف .

بل ما بعث الله نبياً قبل محمد ﷺ إلا وأخذ العهد على قومه أن إذا بُعثَ محمدٌ ﷺ أن يؤمنوا به ويصدقوه وينصروه، كما أخبر الله عن جميع أنبيائه بقوله: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾[1].

وإذا كان الإسلام هو الدين الحق، فإن ما عداه هو الباطل، ولذا كان الإسلام ناسخاً ملغياً لجميع الأديان التي كانت قبله، وجعله الله ظاهراً منتصراً عالياً على جميع الأديان كما أراد الله له بقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ ﴾[3].

وأخبر الله أن الإسلام هو صراطه المستقيم، وأن ما عداه غيٌّ وضلال تبعد عن الله، وتحرم اتباعها من سعادة الدنيا ونعيم الآخرة كما قال تعالى: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾[4].

---

(١) آية ٨١ من سورة آل عمران.
(٢) آية ٣٣ من سورة التوبة.
(٣) آية ٢٨ من سورة الفتح.
(٤) آية ١٥٣ من سورة الأنعام.

وكما قال تعالى: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ ﴾[1] .

فكان وعد الله تعالى الذي لا يخلف لمن استقام على دين الإسلام أن يعيش السعادتين الدنيوية والأخروية، وأن من أعرض عن هذا الدين أن يعيش الشقاء في الدنيا والآخرة .

وضمن الله تعالى لمن تمسك بالإسلام أن يعيش الأمن القلبي والنفسي في الدارين الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾[2] .

وتكفل الله تعالى لأتباع هذا الدين بالثبات الذي هو مصدر طمأنينة القلوب، وراحة النفوس، ومزيل الأكدار والأنكاد والهموم والغموم، كما قال تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿٢٧﴾ ﴾[3] .

جعل الله الهداية الحقة، والصلاح في الدنيا، والنجاة في الآخرة باتباع الإسلام لا غير، كما قال تعالى: ﴿ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا ۖ ﴾[4] ،

---

(١) من آية ١٢٣ وآية ١٢٤ من سورة طه .

(٢) آية ٨٢ من سورة الأنعام .

(٣) آية ٢٧ من سورة إبراهيم .

(٤) من آية ٢٠ من سورة آل عمران .

وقوله سبحانه: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ۖ﴾ (١) .

وأخبر الصادق المصدوق محمد بن عبدالله ﷺ أنه لن يدخل الجنة إلا من تبع هذا الدين الحق دين الإسلام، كما قال ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لاَ يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ يَهُودِي وَلاَ نَصْرَانِي ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ إِلاَّ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ» (٢) .

ولأن الإسلام هو الدين الحق الذي لا يقبل الله ديناً سواه، فقد أكمله الله تعالى، وجعل الرسالة فيه عامة لكل الخلق، ونسخ الله به جميع الأديان السابقة، وحكم الله وقضى أنه الدين الباقي إلى قيام الساعة.

وعيسى عليه السلام ينزل إلى الأرض آخر الزمان فيحكمها، ولكن ليس بالنصرانية فهي دين منسوخ، ولكن بالإسلام شريعة محمد ﷺ، يقول ﷺ مبيِّنا ذلك: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيُوشِكَنَّ أَنْ يَنْزِلَ فِيكُمُ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا عَدْلاً، فَيَكْسِرَ الصَّلِيبَ، وَيَقْتُلَ الْخِنْزِيرَ، وَيَضَعَ الْجِزْيَةَ، وَيَفِيضَ الْمَالُ حَتَّى لاَ يَقْبَلَهُ أَحَدٌ حَتَّى تَكُونَ السَّجْدَةُ الْوَاحِدَةُ خَيْرًا مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»، ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه - وهو راوي الحديث -: وَاقْرَؤُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾﴾ (٣) .

---

(١) من آية ١٣٧ من سورة البقرة

(٢) رواه مسلم - كتاب الإيمان - باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس، ونسخ الملل بملته ص ٧٧ (ح ٣٨٦) .

(٣) آية ١٥٩ من سورة النساء .

والحديث: أخرجه البخاري - كتاب أحاديث الأنبياء - باب نُزُولُ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عليهما
=

وفي الحديث الآخر يقول ﷺ: «لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ - قَالَ - فَيَنْزِلُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ عليه الصلاة والسلام، فَيَقُولُ أَمِيرُهُمْ: تَعَالَ صَلِّ لَنَا . فَيَقُولُ: لاَ . إِنَّ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ أُمَرَاءُ، تَكْرِمَةَ اللهِ هَذِهِ الأُمَّةَ»(١) .

* * *

=
السلام ٤/ ٢٠٤ (ح ٣٤٤٨) .
ومسلم - كتاب الإيمان - باب نُزُولِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ حَاكِمًا بِشَرِيعَةِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ، وإكرام الله لهذه الأمة زادها الله شرفاً ١/ ٩٣ (ح٤٠٦) .

(١) رواه مسلم - كتاب الإيمان - باب نُزُولِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ حَاكِمًا بِشَرِيعَةِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ، وإكرام الله لهذه الأمة زادها الله شرفاً ١/ ٩٥ (ح٤١٢) .

الإسلام الدين الواضح

لما كان الإسلام ديناً ربانياً صادراً من الله تعالى، وهو دين الفطرة ودين العقل كان من أبرز معالمه الوضوح والجلاء، يفهمه كل أحد، ويدرك أحكامه كل أحد .

لقد كانت أحكام هذا الدين كلها بلا استثناء واضحة جلية بما جعل الله تعالى في مصدر التشريع في الإسلام الكتاب والسنة من الوضوح والبيان .

لقد أمر الله تعالى جميع البشرية بتدبر القرآن الكريم والتمعن فيه، وحثهم على ذلك في أكثر من آية، كما في قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾[1]، وإذا كان الله قد أمر جميع الخلق بتدبر وتفهم القرآن فلأن معناه واضح مدرك للجميع؛ إذ يستحيل أن يؤمر الخلق بتفهم كلام غير واضح بيِّن، فدل ذلك على أنه مُحَالٌ أَنْ يَكُونَ في القرآن الكريم مِمَّا لَا يُفْهَمُ مَعْنَاهُ .

وهذه الدعوة لفهم القرآن الكريم ليست دعوة خاصة بالمسلمين أتباع محمد ﷺ، بل هي دعوة عامة لكل البشرية، فعُلِمَ أَنَّ مَعَانِيَهُ مِمَّا يُمْكِنُ لهم جميعاً فَهْمُها وَمَعْرِفَتُهَا .

---

(١) آية ٢٤ من سورة محمد .

وقد وصف الله كتابه الكريم القرآن الكريم بأنه واضح كله لمن قرأه كما قال تعالى: ﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝١﴾[1] .

فهذا وصف للقرآن الكريم يدل على التعظيم لآيات الكتاب المبين البين الواضح الدال على جميع المطالب الإلهية والمقاصد الشرعية، بحيث لا يبقى عند الناظر فيه شك ولا شبهة فيما أخبر به أو حكم به؛ لوضوحه ودلالته على أشرف المعاني، وارتباط الأحكام بحِكمها، فكان رسول الله ﷺ ينذر به الناس، ويهدي به إلى الصراط المستقيم، فيهتدي بذلك عباد الله المتقون .

كما وصف الله سبحانه وبحمده سنة نبيه ﷺ بأنها بينة واضحة، كما قال الله تعالى في وصفها: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۝٤٤﴾[2] .

وجعل الله الإسلام ديناً واضحاً، فسماه الصراط المستقيم، كما قال تعالى: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾[3]، والصراط المستقيم: هُوَ الطَّرِيقُ الْوَاضِحُ الَّذِي لاَ اعْوِجَاجَ فِيهِ، وهو الوصف الذي وصف الله به دين الإسلام في الآية .

---

(١) آية ١ من سورة يوسف .

(٢) من آية ٤٤ من سورة النحل .

(٣) الآية ٦ من سورة الفاتحة .

إن من أبرز خصائص دين الإسلام أن الله تعالى لم يخاطب الناس ولم يأمرهم بما لا يفهمونه ولا يدركونه، ولذا فقد أجمع علماء الإسلام وهم الناظرون في الشريعة المستفيدون من الكتاب ومن السنة على أن كل ما أنزل الله من الوحي وكل الأوامر والنواهي كلها مما يفهمه الناس كلهم، ولم يخاطبهم بما لا يفهمونه، أو بما قد يفهمه البعض دون غيرهم.

لقد كان من أبرز معالم الوضوح في شريعة الإسلام أنها تقوم على أسس عقائدية واضحة ليس فيها لبس ولا تعمية على المسلمين، فلا يقبلون عليها ولا يؤمنون بها إلا وهم على دراية من حقيقتها، تقبلتها قلوبهم وعقولهم مع قناعة و طمأنينة وتسليم .

وحين نرى كثيرا من العقائد والديانات الأخرى غير الإسلام نجد فيها ألغازاً لا تحل، ومسائل تخفى، وسؤالات لا يجاب عنها، بل يوصي كثير من الرهبان أتباعهم من العوام بالإعراض عن هذه المسائل بحجة أنهم لا يدركون معناها ولا يفهمون مغزاها .

نجد أن من خصائص هذا الوضوح في دين الإسلام أن لا يوجد فيه عقائد أو أفكار يمكن أن تحجب عن بعض أتباعه، أو أن تصدر التوصية من أحد أيا كان بإخفائها، بل بيان حقيقة الإسلام حق للجميع معرفتها ، كما أنه واجب على كل من علمها أن يعلمها .

وحين تتأمل كثيراً من أحوال الديانة النصرانية - مثلاً - تجد أن

الغموض يكتنف تعاليمها غموضا لا يساعد على استقراء تعاليمها، وفيها من المعاني الفلسفية المعقدة التي لا تساعد على الإقناع بها دون إلغاء العقل، فكم في الكنيسة من الأسرار التي لا يطلع عليها بعض من بلغ شأناً في أحوال الكنيسة فضلا عن غيرهم من العامة .

ومن هنا يصبح في هذه الأديان كهان أو رجال دين يمارسون سلطاناً روحياً هائلاً على الجماهير، وتحيط بهم هالة من الغموض والأسرار، وهذا هو الذي جعل كثيراً من أتباع هذه الديانات يتمردون عليها ويتركونها إلى غيرها لما عاشوا من قلق كان سببه عدم وضوح هذه الأديان.

وفي دين الله الإسلام جواب لكل سؤال ومعالجة لكل إشكال، وإيضاح لكل شبهة بوضوح وحسن تجلية ليكون إقدام الإنسان على هذا الدين مصدره الطمأنينة لا الريبة، ومصدر العلم لا الحيرة .

وإن مما يجلي هذه الحقيقة ويدل عليها ما يجده المسلم من الطمأنينة والسكينة والفخر بالإسلام ديناً بقناعة، ولذا قل أن تجد مسلماً عارفاً بدينه ومزاياه مطبقاً لأحكامه ثم يرجع عن الإسلام .

وفي قصة أبي سفيان بن حرب مع هرقل والتي وقعت بعد بعثة النبي ﷺ، وقبل إسلام أبي سفيان، وكان أبو سفيان بالشام، فأرسل إليه هِرَقْلَ هو وأصحابه الذين كانوا معه فَأَتَوْهُ وَهُمْ بِإِيلِيَاءَ، فَدَعَاهُمْ فِي مجَلِسِهِ وَحَوْلَهُ عُظَمَاءُ الرُّومِ، ثُمَّ دَعَاهُمْ وَدَعَا بِتَرْجُمَانِهِ، فَقَالَ: أَيُّكُمْ أَقْرَبُ نَسَبًا

بِهَذَا الرَّجُلِ الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ، فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: فَقُلْتُ: أَنَا أَقْرَبُهُمْ نَسَبًا، فَقَالَ: أَدْنُوهُ مِنِّي، وَقَرِّبُوا أَصْحَابَهُ فَاجْعَلُوهُمْ عِنْدَ ظَهْرِهِ، ثُمَّ قَالَ لِتَرْجُمَانِهِ: قُلْ لَهُمْ إِنِّي سَائِلٌ هَذَا عَنْ هَذَا الرَّجُلِ، فَإِنْ كَذَبَنِي فَكَذِّبُوهُ، وكان من أسئلة هرقل لأبي سفيان: فَهَلْ يَرْتَدُّ أَحَدٌ مِنْهُمْ سَخْطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ؟ قُلْتُ: لاَ، ثم قال هرقل معقباً على هذا الجواب: وَسَأَلْتُكَ أَيَرْتَدُّ أَحَدٌ سَخْطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ، فَذَكَرْتَ أَنْ لاَ، وَكَذَلِكَ الإِيمَانُ حِينَ تُخَالِطُ بَشَاشَتُهُ الْقُلُوبَ (١) .

❋ ❋ ❋

(١) الحديث بطوله في صحيح البخاري - كِتَاب بَدْء الْوَحِي - باب كَيْفَ كَانَ بَدْءُ الوَحْيِ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ ١/ ٥ (ح٧) .
وصحيح مسلم - كتاب الجهاد والسير - باب كِتَابِ النبي ﷺ إِلَى هِرَقْلَ يَدْعُوهُ إِلَى الإِسْلاَمِ ٥/ ١٦٣ (ح ٤٧٠٧) .

الإسلام دين الفطرة

الفطرة الإلهية هي ما غرسه الله في النفوس من المكارم التي يرتضيها من بني آدم مما كرمهم به على سائر الخلق، وفضلهم به على سائر المخلوقات .

والفطرة المغروسة في النفس البشرية هي التي تقتضي التوحيد والانقياد لله تعالى وعبادته دون من سواه، وأداء الطاعات، وترك المعاصي والمنكرات، وفعل كل عمل تسعد به النفس من مكارم العادات، وترك كل ما يستقبح من الأمور السيئات .

والفطرة هي المَيْلُ عَنِ الْعِوَجِ إِلَى الإِسْتِقَامَةِ، وَعَنِ الضَّلَالَةِ إِلَى الْهُدَى، وَعَنِ الْبَاطِلِ إِلَى الْحَقِّ .

هذه الفطرة والنزعة السوية في النفس البشرية هي التي بُعث بها محمد ﷺ برسالته الخالدة .

فكل أحكام شريعة الإسلام وتشريعاته تتوافق مع الفطرة ولا تنازعها ولا تناقضها .

ولما أسري بالنبي ﷺ إلى السماء يقول هو في وصف هذه الرحلة العظيمة وما جرى فيها: «أَتَيْتُ بَيْتَ المَقْدِسِ - قَالَ - فَرَبَطْتُهُ - أي البراق - بِالحَلْقَةِ الَّتِي يَرْبِطُ بِهِ الأَنْبِيَاءُ - قَالَ -، ثُمَّ دَخَلْتُ المَسْجِدَ فَصَلَّيْتُ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ خَرَجْتُ، فَجَاءَنِي جِبْرِيلُ - عَلَيْهِ السَّلاَمُ - بِإِنَاءٍ مِنْ خَمْرٍ وَإِنَاءٍ

مِنْ لَبَنٍ، فَاخْتَرْتُ اللَّبَنَ، فَقَالَ جِبْرِيلُ: اخْتَرْتَ الْفِطْرَةَ»[١].

وهذا هو نسق الفطرة؛ لأنه لما كان اللبن كله طيباً نافعاً كان حلالاً في هذه الشريعة، والخمر كله خبيث وضار فكان حراماً فيها، فعدَل ﷺ إلى الفطرة، فاختار الطيب النافع الحلال وترك الخبيث المستقذر المحرم، فدَلَّ ذلك على هدايته لها وتوفيقه إليها، وأنها هي شريعته التي ارتضاها الله له.

وقد أخبر القرآن الكريم في وصفه لشريعة الإسلام بأنها هي شريعة الفطرة، كما قال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٠) ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ (٣١) مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٣٢) ﴾[٢].

فالله تعالى في هذه الأوامر المذكورة في الآية يأمر حبيبه محمداً ﷺ إلى فِطْرَة اللهَّ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا، ووضع في عقولهم حسنها واستقباح غيرها، فإن جميع أحكام الشرع الظاهرة والباطنة قد وضع اللهّ في قلوب الخلق كلهم الميل إليها، فوضع في قلوبهم محبة الحق وإيثار الحق، وهذا حقيقة الفطرة.

(١) رواه مسلم - كتاب الإيمان - باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السموات، وفرض الصلوات ١/ ٩٩(ح ٤٢٩).

(٢) الآيات ٣٠و٣١و٣٢ من سورة الروم.

وأخبر ﷺ أن الإنسان منذ يولد وهو على هذه الفطرة قائمة فيه لا تتغير ولا تتبدل إلا بمؤثرات خارجية تقود إلى إفساد هذه الفطرة، يقول ﷺ: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ»(١) .

وتأمل كيف أن اليهودية والنصرانية أصبحتا مخالفتين للفطرة لما نالهما من التحريف والتغيير، وأن الأصل في الولد أنه على الفطرة الموافقة للإسلام، فيقوم الوالدان بتربيته بالإبقاء على فطرته أو بتغيير هذه الفطرة بتربية على اليهودية أو النصرانية أو غيرهما من الأديان، فكل عدول عن الإسلام إنما هو تغيير للفطرة وتغيير لخلق الله تعالى .

ولما كان دين الإسلام هو دين الفطرة، فإنه جاء بجميع أحكامه موافقاً لمقتضاها، ولَيْسَ فِيهِ مَا يخُالِفُ مُقْتَضَاهَا وَيُنَاقِضُ حقيقتها، بَلْ هُوَ مُهَذِّبٌ وَمُكَمِّلٌ لهَا .

وحين نتأمل أحكام هذه الشريعة الإسلامية الطاهرة، فإننا نجد أن كل هذه الأحكام تتوافق إيجابياً مع الفطرة ولا تنازعها.

فالتوحيد الذي أمر الله به، ونهى عن ضده وهو الشرك هو الفطرة السوية؛ ذلك أن فطرة الإنسان لا تقبل العبودية إلا لمستحقها وهو الله تعالى، كما لا تقبل الشراكة في العبودية لإلهين اثنين فضلاً عن أكثر من ذلك .

---

(١) رواه البخاري – كتاب الجنائز – باب إِذَا أَسْلَمَ الصَّبِيُّ فَمَاتَ هَلْ يُصَلَّى عَلَيْهِ ؟ وَهَلْ يُعْرَضُ عَلَى الصَّبِيِّ الإِسْلاَمُ ؟ ٢/ ١١٨ (ح ١٣٥٨) .
ومسلم – كتاب القدر – باب معنى كل مولود يولد على الفطرة، وحكم موتى أطفال الكفار وأطفال المسلمين ٨/ ٥٢ (ح ٦٩٢٦) .

كما أن الفطرة البشرية السوية لا تقبل العبودية والانقياد بالعبادة لبشر مثلها لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً فضلاً عن العبودية لما هو دون البشر كالأحجار والأشجار.

ومن الفطرة أداء العبادة من إقامة الصلاة والصوم والحج والزكاة وغيرها من الطاعات، فهي موافقة للفطرة .

ومن الفطرة ما يدعو إليه الإسلام من الإحسان للخلق القريب والبعيد بالمال وسائر أنواع الإحسان لما تجده النفوس الطيبة من السعادة والسرور عند إحسانها للناس، وتعظم سعادتها عندما يكون الإحسان للأقربين كالآباء والأمهات والأبناء والبنات والأقارب والجيران .

ومن الفطرة السليمة ما يدعو إليه الإسلام من الدعوة لتناول المأكولات والمشروبات الطيبة النافعة، وتحريمه لكل المستقذرات والمستخبثات التي تفسد المزاج وتضر بالبدن وتكرهها النفوس السليمة.

ومن الفطرة السليمة ما يأمر به الإسلام من تفريغ الشهوات الجنسية عبر عقد محكم رصين قائم على الرضا وهو عقد النكاح، وتحريمه لتناول أعراض الناس بالأسلوب الشهواني البهيمي الذي لا يراعي كرامة الإنسان ولا فطرته، بل يعرضه للامتهان، ولذا حرم الله الزنا واللواط .

ومن الفطرة التي جاء بها الإسلام ما دعا إليه أتباعه من اتخاذ الزينة في الملبس والظهور باللباس الحسن مع البعد عن الفخر على الخلق والتعالي عليهم .

ولأن الإسلام دين الفطرة فهو ينهي عن كل ما يخل بالمروءة من بذاذة الملبس، وكشف العورات، وتعاطي المستقذرات والنجاسات، بل

أمر بالطهارة وجعلها من الدين .

ومن الفطرة ما نهى الله عنه من تناول المفسدات للعقل والبدن من المخدرات والمسكرات .

ومن الفطرة السليمة ما يدعو إليه الإسلام من النهي عن القبائح في الأخلاق والمعاملات، فقد حرم الله في الإسلام غش الناس في المعاملات والكذب والحيل لأكل أموالهم بالباطل .

إن كون دين الإسلام هو دين الفطرة دليل على عدل الخالق ورحمته بخلقة، فإنه تعالى خلق كل إنسان على الفطرة ثم حذره من الخروج منها لغيرها .

وحين يدعو المسلمون غيرهم للإسلام، فإنهم في الحقيقة يدعونهم لموافقة فطرهم السليمة التي خلقهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عليها لا يدعونهم إلى أمر يخالف ذلك .

وهذا سر من أسرار نجاح دعوة محمد ﷺ، وسرعة انتشارها وقبول البشرية لها؛ لأن من عرف دين الإسلام على حقيقته عرف أنه الدين الذي يتوافق مع فطرته، فانقاد له بالقبول والاتباع .

❊ ❊ ❊

الإسلام دين العقل

حين تتهاوى كثير من الاعتقادات والأديان والمشروعات الفكرية أمام العقل البشري السوي لمناقضتها إياه ومخالفتها له يأتي الإسلام بعقيدته وعباداته وأخلاقه وسلوكه لينسجم مع هذا العقل ويوافقه ولا يعارضه .

وكم تذبذب كثير من أتباع الأديان وأصابهم القلق وعدم الارتياح لما هم عليه نتيجة ما يرونه من عقائد يؤمرون بها هي تخالف عقولهم ولا تتوافق معها، بل إن بعض القائمين على هذه الأديان يدعون أتباعهم لعدم النظر والتأمل فيما يقولونه لهم، وألا يعرضوه على عقولهم، وما ذلك إلا لشيء واحد هو أن هذه المعتقدات لا تتوافق مع العقل، فعند الإيمان بها لابد من ترك العقل خارجاً لأنه سيرفضها .

دين الإسلام بعظمته جاء موافقاً للعقول السليمة في مراداته وأحكامه، فلا تناقض هذه الشريعة الطاهرة العقل البشري السوي .

عقيدة الإسلام التي جاء بها القرآن والسنة وقرراها هي مما يوافق العقل، ولذا عند تأمل آيات القرآن الكريم وأحاديث السنة النبوية نجد أنهما يستدلان بالأدلة العقلية على حقائق الإيمان، كالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والموت والبعث والجزاء والحساب والجنة والنار، وغيرها .

ولو تأملت مجادلة المشركين في إثبات وجود الله تعالى واستحقاقه

للعبادة ستجد ذلك جلياً ظاهراً، كقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۩ ﴿١٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾(١) .

وحين ينكر المشركون البعث بعد الموت للجزاء والحساب يحاورهم القرآن الكريم بالقضايا العقلية والبراهين الفكرية التي تدل على هذه الحقيقة الإيمانية وتبين خطأهم في التكذيب، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ

(١) الآيات ١٢-١٧ من سورة الرعد .

وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي ذَرَأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخۡتِلَٰفُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلۡ قَالُواْ مِثۡلَ مَا قَالَ ٱلۡأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدۡ وُعِدۡنَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ قُل لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلۡ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيۡهِ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ فَأَنَّىٰ تُسۡحَرُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾[1] .

وما هذان إلا مثالان لدعوة القرآن الكريم لإعمال العقل والتفكير؛ إذ إنه لو أعمل من قبل جميع البشرية لدلهم على الوحدانية والعقيدة التي بعث بها محمد ﷺ، وهذا دليل أكيد على أن هذا الدين بكل قضاياه يوافق العقل ولا يضاده ويعارضه .

والإسلام كما يوافق العقل في أحكامه العقدية، فهو أيضاً يوافقه في أحكامه التعبدية، وأحكام الأسرة والأخلاق والسلوك، فما أمر الإسلام بحكم شرعي فيه تكليف للعباد وكان العقل يمنع منه لمناقضته العقل السليم، ومثله في النواهي، فما نهى الإسلام عن شيء وأنكر العقل المنع منه .

وكثيراً ما كان القرآن الكريم في دعوته وأمره بالأحكام يدعو القارىء

(١) الآيات ٧٥-٨٩ من سورة المؤمنون .

له لتحكيم عقله فيما أمر به .

قال تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾﴾ (١) .

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾﴾ (٢) .

وحين يفكر العاقل في أحكام هذه الشريعة ومبتغاها وغاياتها ومقصوداتها يجد أنها وفي كل أمورها توافق العقل ولا تناقضه، فكل أحكام الشريعة جاءت متوافقة مع العقل السليم .

وكل هذا إنما هو من تكريم الله تعالى للمسلم أن لا يخالف ولا يعارض دينه عقله؛ إذ إن موافقة الدين للعقل من أعظم ما يبعث الطمأنينة على أن هذا الدين حق، وأنه من عند الله الذي خلق الإنسان، وخلق له العقل وأمره بالإسلام .

ولو تأملنا دين الإسلام بكل أحكامه لوجدنا أنه يحترم العقل، ويمنحه الفرصة للنظر والتفكر والتدبر، ويجعل ذلك سبباً للإيمان بالله من غير المسلمين، وسبباً لزيادة الإيمان عند المسلمين أنفسهم .

فقد أمر الله تعالى بالنظر والتفكر في مخلوقات الله والكون، وجعل ذلك من الإيمان ورتب عليه الأجر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ

---

(١) آية ٣٢ من سورة الأنعام .

(٢) آية ١٠٩ من سورة يوسف .

وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِي ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾[3] .

والإسلام يأمر بالعلم الذي هو مثار تنمية العقل والتفكير، ويحث عليه، ويجعله عبادة لله تعالى سواء الحث على العلم الشرعي وهو أفضله لأن به سعادة الإنسانية في الدارين ، أو علوم الدنيا التي يحتاج إليها الناس في معاشهم وتقوم بها حياتهم .

وكما حرص الإسلام على تنمية العقل وزيادته، فقد حرم كل ما يضر بالعقل أو يفسده، وجعل ذلك جناية على العقل الذي أراد الإسلام أن يكون محترماً، فقد حرم الله الخمر، كما في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِي ٱلْخَمْرِ

(١) آية ١٦٤ من سورة البقرة .

(٢) الآيتان ١٩٠و١٩١ من سورة آل عمران .

(٣) آية ١٠١ من سورة يونس .

وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ (١) .

بل حرم الله كل مسكر وكل مفتر مما كان معروفاً، ومما قد يجد في الصناعات بعد عصر النبوة والرسالة حرَّمه بكلام عام قاله نبي الرحمة محمد ﷺ، في جملة قصيرة حاكمة على كل مضر بالعقل، قال ﷺ: «كُلُّ مُسْكِرٍ خَمْرٌ، وَكُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ، وَمَنْ شَرِبَ الْخَمْرَ فِي الدُّنْيَا فَمَاتَ وَهُوَ يُدْمِنُهَا لَمْ يَتُبْ لَمْ يَشْرَبْهَا فِي الآخِرَةِ» (٢)، وقوله ﷺ: «مَا أَسْكَرَ كَثِيرُهُ فَقَلِيلُهُ حَرَامٌ» (٣) .

* * *

(١) الآيتان ٩٠و٩١ من سورة المائدة .

(٢) رواه مسلم - كتاب الأشربة - باب بيان أن كل مسكر خمر، وأن كل خمر حرام ٦/ ١٠٠ (ح٥٣٣٦) .

(٣) رواه أبو داود - كتاب الأشربة - باب ما جاء في السكر ص ٥٢٨ (ح٣٦٨١) .
والترمذي - كتاب الأشربة - باب ما جاء ما أسكر كثيره فقليله حرام ص٤٣٨ (ح١٨٦٥) .
وقال الألباني: حسن صحيح .

الإسلام الدين المعصوم

العصمة بالمعنى الذي نريده هنا هو أن دين الإسلام دين معصوم من الخطأ والزلل والتحريف والتغيير.

العصمة في دين الإسلام تتمثل حقيقة واقعة تكتسب أصولها من دلالة كلام الله تعالى في القرآن الكريم بما شرف الله به الإسلام وأهله بهذه الخصيصة .

الإسلام دين معصوم بعصمة دستوره الأول وهو القرآن الكريم، فهو كتاب الله المعصوم الذي ارتضى له منزله سبحانه هذه المنزلة .

ولعصمة القرآن معالم كثيرة من أبرزها: أن القرآن معصوم من التغيير والتبديل والتحريف والزيادة والنقص، وقد تكفل الله له بهذا الحفظ أن تطاله يد التغيير، كما قال سبحانه: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩ ﴾[1] .

ولشرف هذا القرآن ومنزلته عند الله، فقد خصه الله بهذه الرتبة، فقد كانت جميع الكتب السماوية السابقة للقرآن وكَّل حفظها لأهلها الذين أنزلت عليهم ، كما أخبر الله عنهم في قوله سبحانه: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ

---

(١) آية ٩ من سورة الحجر .

وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ﴾ (١) .

ثم إن كثيراً من هذه الأمم لم تحافظ على ما حملها الله من أمانة حفظ الكتب، فجرى في الكتب التحريف والتغيير والزيادة والنقصان حتى أضحى في كثير من الأديان مجموعة من النسخ المختلفة للكتاب الواحد، وبين هذه النسخ اختلاف كبير نتيجة ما أصابها من التغيير، والله سبحانه لم ينزل عليهم كتباً متعددة، ولكنه التحريف والتغيير .

أما كتاب أهل الإسلام القرآن الكريم، فهو ومع بُعد العهد بزمن النبوة حيث مضى على نزول القرآن أكثر من أربعة عشر قرناً، ومع ذلك لم يزل القرآن هو القرآن بسوره وآياته، بل وحتى بحروفه لم يزد ولم ينقص مع محاولات شديدة من أعداء القرآن للتحريف فيه، ولكن وعد الله لا يخلف .

وكان من آثار هذه العصمة للقرآن الكريم: أن القرآن لا يرد عليه في آياته التعارض ولا التناقض ولا الاختلاف، كما قال سبحانه: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾(٢).

فقد نفى الله سبحانه عن كتابه المبارك كل اختلاف كثيراً وقليلاً، وجعل العلامة الصادقة في ذلك أنه لو كان من غيره سبحانه لوقع فيه الاختلاف الكثير، فلما لم يقع فيه أي اختلاف دل على أنه من عند الله تعالى؛ لأن ما يكون من عند غير الله لا يخلو من تناقض واختلاف واضطراب .

---

(١) من آية ٤٤ من سورة المائدة .

(٢) آية ٨٢ من سورة النساء .

والعصمة للقرآن مقتضية أن لا يعارض بعضه بعضاً ولا ينافيه ولا يكذبه، كما هي مقتضية أيضاً لعدم معارضة غير القرآن للقرآن، فكل قول عارض القرآن وصادمه فهو باطل .

وكلٌ يدل على أن القرآن من عند الله تعالى، وأنه معجزة أهل الإسلام الخالدة، وأنه معصوم بعصمة الله تعالى له .

وكفى القرآن العزيز شرفًا أنه على اختلاف موضوعاته من توحيد، وتعليم، وإنذار، وتبشير، وأوامر ونواهٍ، وحِكمٍ وأحكامٍ، وأخبار وقصص قد مضى عليه القرون المتعاقبة، وهو مع كل هذا يتعرض لأفكار الناقدين المعادين، فلم يظفروا فيه ولو بتناقض واحد، بل مرور الأعوام يزيد في نصوع حقيقته وصدق خبره، كما تنبه إليه المدققون المتأخرون أنه كلما اكتشف العلم حقيقة وجدها الباحثون مسبوقة التلميح أو التصريح في القرآن، أودع الله ذلك فيه ليتجدد إعجازه ويقوى الإيمان بأنه من عند الله؛ لأنه ليس من شأن مخلوق أن يقطع برأي لا يبطله الزمان، وهذا دليل عصمته .

ودين الإسلام معصوم بعصمة نبيه الذي بُعث به، وهو محمد بن عبدالله ﷺ، فليس أحد من البشر معصوما سواه، نال هذه المنزلة وأدرك هذا الشرف من ربه الذي اصطفاه واختاره لهذه الرسالة وزكاه لها وبها، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ ﴾[1] .

وعصمة الله لنبيه ﷺ كانت في كل أمور الرسالة مما يزينها ويعظمها

(١) الآيتان ٣و٤ من سورة النجم .

وينفي عنها ما يشينها .

فقد كان من عصمة الله لمحمد ﷺ تربية الله له في شبابه وقبل النبوة بما اتصف به من كريم الأخلاق، وما حفظه الله تعالى عن أقذار الجاهلية ومعائبها وطهارته ونزاهته وبراءته من كل ما كان يفعله أهل الجاهلية مما ينافي ما عليه أهل الكمال من الرجال فضلاً عما يخل بمقام من يؤهل للنبوة والرسالة، فقد كان معروفاً بالصدق والكرم مبتعداً عن كل ما كان سارياً في قومه من شرب الخمر والسجود للأصنام .

ومن عصمة الله له: أنه معصوم عن سفاسف الأخلاق من الفواحش ونحوها؛ لأنه لا يليق بمقام النبوة .

ومن عصمة الله له: أن الله عصمه عن عموم الذنوب والإقرار على الذنوب والمعاصي، كما عصمه الله من الشرك.

ومن عصمة الله له: أن الله عصمه من الخطأ وقول الباطل، فإن المعصوم لا يفعل إلا حقاً، ولا يقول إلا صدقاً .

ومن عصمة الله له: أن الله عصمه في تبليغ الرسالة، فهو معصوم فيما يبلغه عن الله، فلا يستقر في خبره خطأ، كما لا يكون فيه كذب، فإن وجود هذا وهذا في خبره يناقض مقصود الرسالة، ويناقض الدليل الدال على أنه رسول، بل قام بالدعوة كما أمره بها ربه، فبلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة، وكان من عصمة الله له أنه بلغ عن الله كما أمره الله لم يزد ولم ينقص .

ومن عصمة الله له: أنه لا يخطئ في تبليغ التشريع والأحكام،

وإن عصمته ﷺ ظاهرة لكل من درس سيرته وحياته، ففيها سيرى

عناية الله به وعصمته التي هي من أكبر الأدلة على نبوته وصدقه، كما أنها أكبر دليل على وجوب طاعته واتباع دينه .

ودين الإسلام معصوم بعصمة أمة محمد ﷺ كلها، فإن أمة محمد ﷺ لا يمكن بحال أن تتفق على خطأ أو منكر أو باطل، بل كل ما اتفقت عليه فهو حق والباطل سواه .

وهذه من الخصائص التي خصها الله به من بين سائر الأمم وشرفها به على جميع البشرية، فهو من كرامة أمة الإسلام على الله تعالى، كما مدحها الله تعالى بقوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾[1]، أي عدولاً خياراً، والعدل الخير لا يقول إلا حقاً، وكما أخبر النبي ﷺ بقوله: «إن الله تعالى لا يجمع أمتي على ضلالة»[2]، فكل ما اتفقت الأمة عليه في عصر من عصورها فهو حق لا مرية فيه ولا جدال .

وإن إكرام الله لأمة الإسلام بهذه الكرامة لهو من معاني سمو رسالة الإسلام التي أراد الله فيها للمسلمين الوحدة والاتفاق، وأن تكون الأمة يداً واحدة لا تتشتت ولا تتفرق، فقد أراد لها الوحدة ونهاها عن التفرق والاختلاف، كما قال تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ

(١) من آية ١٤٣ من سورة البقرة .

(٢) رواه الترمذي - كتاب الفتن - باب ما جاء في لزوم الجماعة ص٤٩٨ (٢١٦٧)، وصححه الألباني .

﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾[1] .

وكان من عظمة هذا الدين أن حصرت العصمة في الثلاثة - القرآن ، والنبي ﷺ، والأمة بمجموعها - فلا عصمة بعد ذلك لأحد كائناً من كان، لا لإمام ولا لحاكم ولا لمجتهد، بل كلٌ يعرض قوله على كتاب الله تعالى وعلى سنة رسول الله ﷺ وعلى إجماع الأمة، فإن وافقها فقوله حق يؤخذ به، وإن خالفها فهو مردود عليه لا يقبل منه، وإن كان معذوراً في خطئه واجتهاده .

* * *

(١) آية ١٠٣ من سورة آل عمران .

الإسلام دين الرحمة

الله بعباده رؤوف رحيم، كما أخبر سبحانه وتعالى عن نفسه بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾[1]، وكما أخبر عنه نبيه ﷺ بقوله العظيم الذي يضرب به المثل للبشر في بيان عظمة رحمة الله بخلقه، كما يقول الصحابي الجليل عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «قَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ سَبْيٌ، فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنَ السَّبْيِ قَدْ تحَلُبُ ثَدْيَهَا تَسْقِي إِذَا وَجَدَتْ صَبِيًّا فِي السَّبْيِ أَخَذَتْهُ فَأَلْصَقَتْهُ بِبَطْنِهَا وَأَرْضَعَتْهُ، فَقَالَ لَنَا النَّبِيُّ ﷺ: أَتَرَوْنَ هَذِهِ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ ؟ قُلْنَا: لاَ، وَهْيَ تَقْدِرُ عَلَى أَنْ لاَ تَطْرَحَهُ، فَقَالَ: اللهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا»[2] .

و ربنا سبحانه وبحمده هو الرؤوف الرحيم، فكل الأديان والملل التي بعث الله بها أنبياءه إنما هي رحمة بالعباد .

وإذا كانت كل الأديان السماوية كذلك، فإن البشرية كلها ما عرفت ديناً يحمل الرحمة لأتباعه مثل دين الإسلام، ويكفى أن مبعث النبي محمد ﷺ بهذا الحديث إنما كان رحمة من الله تعالى بخلقه، كما قال

---

(١) من آية ١٤٣ من سورة البقرة .

(٢) رواه البخاري - كتاب الأدب - باب رَحْمَةِ الْوَلَدِ وَتَقْبِيلِهِ وَمُعَانَقَتِهِ ٨/ ٩ (ح٥٩٩٩) .
ومسلم - كتاب التوبة - باب فِي سَعَةِ رَحْمَةِ اللهِ تَعَالَى وَأَنَّهَا سَبَقَتْ غَضَبَهُ ٨/ ٩٧ (ح٧١٥٤)

تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾[١] .

وإنزال الله القرآن الكريم هدايةً وصلاحاً وشفاءً للخلق إنما هو رحمة بهم، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمۡرٗا مِّنۡ عِندِنَآۚ إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٦﴾ ﴾[٢] .

ومن رحمة الله اختيار هذا النبي ﷺ الذي وصفه ربه سبحانه بالرحمة، قال الله تعالى: ﴿ لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴾[٣] .

وأبان النبي الكريم محمد ﷺ عن أخلاقه التي بعث بها رحمة للعالمين حين قيل له أن يدعو على من خالفه وآذاه، فقال ﷺ: «إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ لَعَّانًا وَإِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً»[٤] .

لقد تمثلت الرحمة في الإسلام بجميع أحكامه، ففي كل أحكامه تظهر رحمة الله بعباده بما جلبه لهم هذا الدين من المنافع والمصالح، وما دفعه عنهم من المفاسد والمضار، فأمرهم فيه بكل حسن وفيه الخير لهم، ونهاهم عن كل قبيح رحمة بهم، كما أن من الرحمة بهم أنه لم يأمرهم بما يضرهم .

---

(١) آية ١٠٧ من سورة الأنبياء .

(٢) الآيات ١-٦ من سورة الدخان .

(٣) آية ١٢٨ من سورة التوبة .

(٤) رواه مسلم -كتاب البر والصلة والآدب - باب النَّهْيِ عَنْ لَعْنِ الدَّوَابِّ وَغَيْرِهَا ٨/ ٢٤ (ح٦٧٧٨) .

ومن معالم هذه الرحمة أن الله تعالى رفق بالمسلمين، وجعل دينهم يسراً لا عنت فيه ولا مشقة .

ومن رحمة الإسلام بأتباعه أن جعل الأصل الأشياء في المآكل والمشارب الإباحة، فلم يحرم عليهم ولم يمنعهم إلا من أشياء قد تحقق ضررها ، فكان منعهم منها هو من باب الرحمة بهم .

ومن رحمة الإسلام أن شرع الحدود والتعزيرات لمن أخطأ وارتكب ممنوعاً خاصة فيما يطال الناس من شر في أبدانهم وأعراضهم وأموالهم، فكان من الرحمة معاقبة المخطئ تكفيراً لخطيئته، وزجراً له .

كما أن هذه الحدود والتعزيرات التي جعلها الله عقوبات لمن تعدى حدود وأخطأ على عباد الله هي من الرحمة بالمجتمع، فهي تنتصر للمظلوم بأخذ حقه، وتنتصر للمجتمع كله بالأخذ على يد كل من يفكر بأذى الناس أفراداً أو مجتمعاً، وهي ردع لكل من يفكر بفعل هذه المحرمات، وأخذ بأيديهم لمنعهم من ارتكاب هذه المنكرات، كما قال تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِي ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[1] .

ومن رحمة الإسلام: ما شرعه الله تعالى في هذا الدين من أمر الله تعالى أهل الإسلام من التراحم بينهم، حيث أمر الكبير أن يرحم الصغير، كما أمر القوي أن يرحم الضعيف، بل والرحمة للجميع، يقول ﷺ: «الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا أَهْلَ الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي

---

(١) آية ١٧٩ من سورة البقرة .

السَّمَاءِ» [١] .

ومن هذه الرحمة التي تعبد الله بها أهل الإسلام رحمة الأطفال الصغار، فهي عبادة وفيها أجر عظيم، والقدوة في ذلك النبي الرحيم ﷺ حيث كان يقبل الصغار رحمة بهم، فقد جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: تُقَبِّلُونَ الصِّبْيَانَ فَمَا نُقَبِّلُهُمْ ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَوَ أَمْلِكُ لَكَ أَنْ نَزَعَ اللهُ مِنْ قَلْبِكَ الرَّحْمَةَ» [٢]، وجاء للنبي ﷺ رجل اسمه الأقرع بن حابس فرأى النبي ﷺ يقبل الحسن بن علي فقال: إن لي عشرة من الولد ما قبلت أحدا منهم، فقال نبي الله ﷺ: «من لا يَرحم لا يُرحم» [٣] .

وممن أكد الإسلام رحمته والإحسان إليه الوالدان جزاء إحسانهما، ولذا فقد أمر الأبناء والبنات ببرهم والإحسان إليهم خصوصاً حال كبرهم وضعفهم وعجزهم .

ويبلغ السمو في الإسلام أن جعل بر الوالدين عبادة لله تعالى، وقرن الله حقهما بحقه سبحانه وجعل حقهما أولى الحقوق بعد حقه سبحانه، ولما سئل ﷺ عن أحب الأعمال إلى الله قال: «الصلاة على وقتها، قال: ثم أي ؟ قال: ثم بر الوالدين ..» [٤].

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند ١١/ ٣٣ (ح ٦٤٩٤) .
ورواه أبوداد - كتاب الأدب - باب في الرحمة ص٦٩٦ (ح٤٩٤١) .
وصححه الألباني .

(٢) رواه البخاري - كتاب الأدب - باب رَحْمَةِ الْوَلَدِ وَتَقْبِيلِهِ وَمُعَانَقَتِهِ ٨/ ٩ (ح ٥٩٩٨).

(٣) رواه مسلم - كتاب الفضائل - باب رَحْمَتِهِ ﷺ الصِّبْيَانَ وَالْعِيَالَ وَتَوَاضُعِهِ وَفَضْلِ ذَلِكَ ٧/ ٧٧ (ح٦١٧٠) .

(٤) رواه البخاري - كتاب الصلاة - باب فضل الصلاة لوقتها ١ / ١٤٠ (ح٥٢٧) .

وقد أكد الله على حقهما في آيات كثيرة، كما قال تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ﴾[1]، فحفظ حق الوالدين حتى مع كونهما كافرين غير مسلمين.

وقوله تعالى: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ ﴾[2].

ومن الرحمة التي شرعها الله تعالى: الرحمة بالنساء لضعفهن الذي هو من طبيعتهن وتكوينهن، فقد أمر الله برحمتهن خصوصاً البنت والأم، حتى إن الشرع جعل حق الأم في البر والإحسان مقدماً على حق الأب ومؤكداً، وما ذلك إلا لحاجتها للرحمة وأولادها هم أولى الناس بها، يقول ﷺ لما سُئل أي الناس أحق بالصحبة والإكرام؟ قَالَ: «أُمُّكَ ثُمَّ أُمُّكَ ثُمَّ أُمُّكَ، ثُمَّ أَبُوكَ، ثُمَّ أَدْنَاكَ أَدْنَاكَ»[3].

---

(١) الآيتان ١٤و١٥ من سورة لقمان.

(٢) الآيات ٢٣ –٢٥ من سورة الإسراء

(٣) رواه مسلم – كتاب البر والصلة والآداب – باب بِرِّ الْوَالِدَيْنِ وَأَنَّهُمَا أَحَقُّ بِهِ ٨/ ٢ (ح٦٦٦٥).

ومن ذلك رحمة الزوجة وأخذها بالرفق واللين والإحسان مع حسن العشرة، فقد وصى بهن النبي ﷺ خيراً، فقال ﷺ: «استوصوا بالنساء خيراً»(١)، وجعل أكرم وخير الناس هو ذلك الرجل الذي يرحم زوجته ويحسن إليها، يقول ﷺ: «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي»(٢).

وإن من معالم الرحمة في دين الإسلام: رحمة اليتيم حيث أمر الله تعالى ورسوله بالإحسان إليه وكفالته والعطف عليه وبذل المعروف له ليس في المال فقط، بل حتى في الوجدان والعاطفة، قال الله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾(٣)، وبشر النبي ﷺ كافل اليتيم الذي يقوم بكفالته مالياً وعاطفياً ويحسن إليه أنه سيكون في منزلة عالية في الجنة، وسيكون مرافقاً للنبي ﷺ فيها، يقول ﷺ: «أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِي الجَنَّةِ هَكَذَا، وَأَشَارَ بِالسَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى، وَفَرَّجَ بَيْنَهُمَا شَيْئًا»(٤).

ويكفي أن اليتيم عند المسلمين هو من الفرص التعبدية بثواب كفالته، كما أن رحمته والإحسان إليه من وسائل رقة القلب، فإن رجلا شكا إلى النبي ﷺ قسوة قلبه فقال: «امسح رأس اليتيم وأطعم المسكين»(٥).

---

(١) رواه البخاري – كتاب أحاديث الأنبياء – باب خَلْقِ آدَمَ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ وَذُرِّيَّتِهِ ٤/ ١٦١ (ح٣٣٣١).

ومسلم – كتاب الرضاع – باب الْوَصِيَّةِ بِالنِّسَاءِ ٤/ ١٧٨ (ح ٣٧٢٠)

(٢) رواه الترمذي – كتاب المناقب – باب فضل أزواج النبي ﷺ ص٨٧٨ (ح٣٨٩٥) وحسنه.

(٣) من آية ٢٢٠ من سورة البقرة.

(٤) رواه البخاري – كتاب الأدب – باب فضل من يعول يتيما ٨/ ١٠ (ح ٦٠٠٥).

(٥) رواه الإمام أحمد في مسنده ١٤/ ٥٥٨ (ح ٩٠١٨) وحسنه الألباني.

وتتأكد الرحمة بالإسلام لكل ضعيف عاجز فيوجب عجزه رحمته والإحسان إليه، فقد أوصى نبي الرحمة ﷺ بكل ضعيف محتاج، يقول ﷺ «فُكُّوا الْعَانِيَ - يَعْنِي الأَسِيرَ -، وَأَطْعِمُوا الْجَائِعَ، وَعُودُوا الْمَرِيضَ»(١).

وليست الرحمة موجهة للمسلمين فحسب، بل إن المسلم مدعو لرحمة غير المسلمين، وإن أول الرحمة بهم دعوتهم للإسلام وإنقاذهم من ذل الكفر وشقاء الشرك وعذاب الآخرة، فكان من رحمة أهل الإسلام بالبشرية كلها أن يدعو الناس كلهم إلى دين الله تعالى الإسلام الذي فيه نجاتهم وسعادتهم.

وكان من كمال رحمتهم أن تكون دعوتهم للإسلام بحكمة وموعظة حسنة؛ إذ إن هذا هو مقتضى الرحمة بهم، قال الله تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾(٢).

ورحمة المسلمين بغير المسلمين تتجلى في أصعب المواقف وأشدها وهي حال الحرب، فإن الرحمة تبقى حقاً مشروعاً لغير المحاربين خصوصاً الضعفة كالأطفال والنساء، وقد أُخبر النبي ﷺ في إحدى غزواته أنَّ امْرَأَةً وُجِدَتْ مَقْتُولَةً، فَأَنْكَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَتْلَ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ(٣).

---

(١) رواه البخاري - كتاب الجهاد والسير - بَابٌ فَكَاكِ الأَسِيرِ ٤/ ٨٣ (ح ٣٠٤٦).

(٢) آية ١٢٥ من سورة النحل.

(٣) رواه البخاري - كتاب الجهاد والسير - باب قتل الصبيان في الحرب ٤/ ٧٤ (ح٣٠١٤).
ومسلم - كتاب الجهاد والسير - باب تَحْرِيمِ قَتْلِ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ فِي الْحَرْبِ ٥/ ١٤٤(ح ٤٦٤٥).

وتبلغ الرحمة بالإسلام لتصل لغير الإنسان لتدرك البهائم والحيوانات، فقد جاء الإسلام برحمتها والإحسان إليها، وقد كان من هدي النبي الكريم ﷺ الأمر برحمة الحيوان والإحسان إليه، وفي الحديث: «أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: بَيْنَا رَجُلٌ يَمْشِي فَاشْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ، فَنَزَلَ بِئْرًا فَشَرِبَ مِنْهَا ثُمَّ خَرَجَ، فَإِذَا هُوَ بِكَلْبٍ يَلْهَثُ يَأْكُلُ الثَّرَى مِنَ الْعَطَشِ، فَقَالَ: لَقَد بَلَغَ هَذَا مِثْلُ الَّذِي بَلَغَ بِي، فَمَلأَ خُفَّهُ ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِفِيهِ ثُمَّ رَقِيَ فَسَقَى الْكَلْبَ، فَشَكَرَ اللهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ، قَالُوا: يَا رَسُولَ الله وَإِنَّ لَنَا فِي الْبَهَائِمِ أَجْرًا ؟، قَالَ: فِي كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ» [1] .

* * *

(١) رواه البخاري - كتاب المساقاة - باب فضل سقي الماء ٣/ ١٤٦ (ح ٢٣٦٣) .
ومسلم - كتاب السلام - باب فَضْلِ سَاقِي الْبَهَائِمِ الْمُحْتَرَمَةِ وَإِطْعَامِهَا ٧/ ٤٤ (ح٥٩٩٦) .

الإسلام الدين الوسط

دين الإسلام هو الدين الوسط بين الأديان هذا ما ارتضاه الله تعالى لهذا الدين وهذا ما وصفه به الله، كما في قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾[1].

والآية ثناء على المسلمين؛ لأن الله قد ادخر لهم الفضل وجعلهم وسطا بما هيأ لهم من أسباب الفضيلة والكرامة، فهم متوسطون في الدين بين المُفرِطِ والمُفَرِّطِ، والغالي والمقصر؛ لأنهم لم يغلوا كما غلت بعض الأمم والأديان، وأيضاً لم يقصروا كما قصرت أمم وأديان أخرى.

ومن معاني الآية عند ربطها بما سبقها من آيات ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾[2] المعنى: وكما أن الكعبة وسط الأرض كذلك جعلناكم أمة وسطا، أي جعلناكم دون الأنبياء، ووسطية الأمة الإسلامية بين الأمم هي بكل معاني الوسطية.

فهي الأمة الوسط بمعنى العدل بين الأمم، فهي أعدل الأمم، ولذا لما كانت أمة محمد ﷺ كذلك خصهم الله تعالى بين سائر الأمم بالشهادة على الناس يوم القيامة، ولذلك لما وصف الله أمة محمد ﷺ

(١) من آية ١٤٣ من سورة البقرة.

(٢) من آية ١٤٣ من سورة البقرة.

بأنهم الوسط، بين نتيجة ذلك بقوله في نفس الآية: ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾[(١)].

ومن شهادة هذه الأمة على غيرهم أنه إذا كان يوم القيامة، وسأل الله المرسلين عن تبليغهم والأمم المكذبة عن ذلك، وأنكروا أن الأنبياء بلغتهم استشهدت الأنبياء بهذه الأمة، وزكاها نبيها .

ومن معاني الوسطية في الأمة أنها الوسط بمعني الخيرية، فهي خير الأمم وأفضلها عند الله تعالى، وما صحت شهادتها على الأمم إلا لأنها خيرها، وقد صرح الله تعالى في القرآن الكريم بخيرية أمة الإسلام، كما في قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾﴾[(٢)] .

ومن معاني وسطية الإسلام اعتداله بين الغالي والجافي، والمتشدد والمتساهل، فهو في كل أحكامه على الوسط، والوسط هو الخير، وما عدا الوسط فأطراف داخلة المخالفة والضرر، فجعل الله هذه الأمة وسطا في كل أمور الدين .

وَكُلٌّ مِنَ الْإِفْرَاطِ وَالتَّفْرِيطِ مَيْلٌ عَنِ الجَادَّةِ الْقَوِيمَةِ، فَهُوَ شَرٌّ وَمَذْمُومٌ، وهكذا كانت الأديان المحرفة، فَالخِيَارُ: هُوَ الْوَسَطُ بَيْنَ طَرَفِي الْأَمْرِ ؛ أَي: المُتَوَسِّطُ بَيْنَهُمَا، وهو الحق الذي هدى الله له أمة محمد ﷺ.

---

(١) من آية ١٤٣ من سورة البقرة .

(٢) آية ١١٠ من سورة آل عمران .

وهذا الاعتدال والوسطية جار في جميع أحكام هذا الدين في العقائد والعبادات والمعاملات والأخلاق والآداب .

وحين يتأمل الناظر في أحكام الإسلام وفي الأديان الأخرى يدرك رحمة الله ونعمته وفضله الممنوح لهذه الأمة .

فدين الإسلام وسط بين الأديان في العقيدة بالله تعالى، فحين انحرفت الأمم السابقة، وهدى الله أهل الإسلام للحق في صفات الله تعالى، فإن اليهود وصفوا الله تعالى بصفات المخلوق الناقصة، فقالوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ﴾[1]، وكان من قول اليهود أيضاً: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾[2]، وقالوا: إنه تعب من الخلق فاستراح يوم السبت، إلى غير ذلك .

والنصارى وصفوا المخلوق بصفات الخالق المختصة به، فقالوا: إن عيسى عليه الصلاة والسلام يخلق ويرزق، ويرحم ويتوب على الخلق، ويثيب ويعاقب .

والمؤمنون آمنوا بالله سبحانه وتعالى، ليس له سمي ولا ندٌّ ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾ ﴾[3]، وأثبتوا له سبحانه ما أثبته لنفسه من صفات الكمال مما دل عليه القرآن الكريم وسنة المصطفى الأمين صلى الله عليه وسلم، ونفوا مشابهته للخلق إجلالاً له وتعظيماً ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ

---

(١) من آية ١٨١ من سورة آل عِمْرَان .

(٢) من آية ٦٤ من سورة المائدة .

(٣) آية ٤ من سورة الإخلاص .

شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ ﴾[١]، فإنه رب العالمين، وخالق كل شيء، وكل ما سواه عباد له، فقراء إليه ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ ﴾[٢]، وكما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ ﴾[٣].

والمسلمون وسط في الموقف والعقيدة في أنبياء الله، ورسله، وعباده الصالحين، لم يغْلوا فيهم كما غلت النصارى حين ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ ﴾[٤]، ولا جَفَوْا عنهم كما جفت اليهود، فكانوا يقتلون الأنبياء بغير حق كما أخبر الله عنهم بقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّۦنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ ﴾[٥].

بل المؤمنون آمنوا برسل الله، وعزروهم، ونصروهم، ووقروهم، وأحبوهم، وأطاعوهم، ولم يعبدوهم، ولم يتخذوهم أرباباً، كما قال

(١) من آية ١١ من سورة الشورى.
(٢) الآيات ٩٣-٩٥ من سورة مريم.
(٣) آية ١٥ من سورة فاطر.
(٤) آية ٣١ من سورة التوبة.
(٥) آية ٢١ من سورة آل عمران.

تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾[١].

وأهل الإسلام توسطوا في المسيح، فلم يقولوا: هو الله، ولا ابن الله، ولا ثالث ثلاثة كما تقوله النصارى، ولا كفروا به، ولا قالوا على مريم بهتاناً عظيماً، حتى جعلوه ولدَ زنا كما زعمت اليهود - حاشاه عليه السلام - بل قالوا: هذا عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول وروح منه.

بل جاء القرآن الكريم ليبين الموقف من عيسى عليه السلام أجمل بيان؛ لأنه هو العدل الوسط، كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ ﴾[٢].

وجاء القرآن الكريم بمدح عيسى عليه السلام، فقال: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ

(١) الآيتان ٧٩ و ٨٠ من سورة آل عِمْرَان.

(٢) آية ١٧١ من سورة النساء.

وَٱلْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ ﴾[١] .

وفي التشريع للأحكام جاء الإسلام وسط بين الأديان السابقة له وذلك بعد أن طالها التحريف في الغلو والتشديد أو في التهاون والتمييع، فالمسلمون لم يحرّموا على الله أن ينسخ ما شاء، ويمحو ما شاء ويثبت كما قالته اليهود، فقد حكى الله تعالى ذلك عنهم بقوله: ﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ﴾[٢]، وبقوله: ﴿ قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ﴾[٣] .

وفي الإسلام لم يجوّز لأكابر العلماء والعبّاد - مع جلالة قدرهم - أن يغيّروا دين الله، فيأمروا بما شاءوا وينهوا عما شاءوا، كما يفعله النصارى، كما ذكر الله عنهم بقوله: ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾[٤].

---

(١) الآيتان ١١٠و١١١ من سورة المائدة .

(٢) من آية ١٤٣ من سورة البقرة .

(٣) من آية ٩١ من سورة البقرة .

(٤) من آية ٣١ من سورة التوبة .

والمسلمون قالوا: لله الخلق والأمر، فكما لا يخلق غيره لا يأمر غيره، وقالوا: سمعنا وأطعنا، فأطاعوا كل ما أمر الله به، وقالوا: إن الله يحكم ما يريد، وأما المخلوق فليس له أن يبدل أمر الخالق تعالى .

وأهل الإسلام وسط في أهل الأديان في قضايا الحلال والحرام، فإن اليهود حُرِّمت عليهم كثيراً من الطيبات عقوبة لهم، كما قال تعالى: ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾[1]، فلا يأكلون ذوات الظفر مثل الإبل والبط، ولا شحم الثَّرْب والكليتين، ولا الجدي في لبن أمه إلى غير ذلك مما حرم عليهم من الطعام .

وأما النصارى فاستحلوا الخبائث وجميع المحرمات، وإنما قال لهم المسيح: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾[2] .

أما دين الإسلام فيكفيه فخراً أن الله وصفه ووصف أهله بأعدل وأوسط وصف حين، قال سبحانه: ﴿ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ

(١) من آية ١٦٠ من سورة النساء .

(٢) من آية ٥٠ من سورة آل عِمْرَان .

أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ (١).

والإسلام دين وسط في الموقف من النجاسات، فاليهود شدد عليهم فيها، فلا تصح لهم صلاة إلا في بيعهم وكنائسهم، ولا يطهرهم الماء من النجاسات، ولا يؤاكلون الحائض ، ولا يساكنونها في البيوت، والنصارى بخلافهم فهم يباشرون جميع النجاسات ولا يحرمون شيئاً منها، بل يسوغون استعمال كل ما دب ودرج، وأهل الإسلام نالوا الوسط باستعمال الطيبات وبالامتناع عن المستقذرات والنجاسات، كما قال الله في الآية السابقة: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ﴾ (٢)، وجعل لهم الأرض صعيداً طيباً طهوراً، كما قال ﷺ: «أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الأَنْبِيَاءِ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، وَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلاَةُ فَلْيُصَلِّ، وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ» (٣).

وفي الموقف من العلم فإن أمة الإسلام هي أمة الوسط، فاليهود يتعلمون العلم ولا يعملون به، والنصارى يتعبدون على جهل وضلال، فكانت أمة محمد ﷺ الأمة الوسط التي جمعت بين العلم والعمل، فكانوا

---

(١) الآيتان ١٥٦ و١٥٧ من سورة الأعراف .

(٢) من آية ١٥٧ من سورة الأعراف .

(٣) رواه البخاري -كتاب الصلاة - باب قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ جُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا ١/ ١١٩ (ح٤٣٨) .
ومسلم - كتاب المساجد ومواضع الصلاة - باب المساجد ومواضع الصلاة ٢/ ٦٢ (ح١١٩١) .

هم أصحاب الصراط المستقيم الذي أمر الله جميع الخلق أن يدعوا لأنفسهم بالهداية إليه ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧ ﴾[1] .

وفي المال وطلب التكسب كان الإسلام وسطاً بين الأديان والمذاهب، فالنظام الرأسمالي يبيح الملكية الفردية إباحة مطلقة، فالغاية لجمع المال تبرر كل وسيلة للحصول عليه، وإن كان أسلوباً ينافي القيم والأخلاق وينال المال بأكل أموال الآخرين بالباطل، والنظام الاشتراكي يلغي الملكية الفردية ويمنعها، فلا حق للفرد بالمال إلا بقدر حاجته .

وجاء الإسلام بالمنهج الوسط، فقد أباح التكسب وطلب الرزق وجعل المسلم فيه مالكاً، بل ومأجوراً عند الله بهذا العمل وجعل من الخيرية للعبد أن يكون أكله من سعيه هو، كما قال ﷺ: «لأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلَهُ فَيَأْتِيَ بِحُزْمَةِ الحَطَبِ عَلَى ظَهْرِهِ فَيَبِيعَهَا فَيَكُفَّ اللهُ بِهَا وَجْهَهُ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ النَّاسَ أَعْطَوْهُ، أَوْ مَنَعُوهُ»[2] .

لقد أقام الإسلام المبادئ الأخلاقية في التعامل المالي، فمنع الظلم وتحصيل الأموال بالباطل، ومنع كل معاملة تكسب المال ولكنها على حساب الأخلاق والقيم الإيمانية، كما منع الإضرار بالآخرين حال التكسب، ولذلك حرم الله الربا والقمار والحيل والاحتكار، قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ

---

(١) الآيتان ٦و٧ من سورة الفاتحة .

(٢) رواه البخاري – كتاب الزكاة – باب الاستعفاف عن المسألة ٢/ ١٥٢ (ح١٤٧١) .

إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْۚ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ ﴾[١].

وكان من قيم الإسلام العالية في المال تربية اتباعه بعدم الاستئثار بالمال دون الغير، ولذلك أوجب الله النفقة على القريب، وأمر بالزكاة للفقراء والمساكين، وحث على الصدقة والهبة والعطية والهدية والوقف والوصية .

❋ ❋ ❋

(١) آية ٢١ من سورة النساء .

الإسلام دين المصالح

الإسلام بكل تشريعاته جاء مراعياً لمصالح أتباعه، بل وحتى لمصالح غيرهم، وهذا من مقتضى رحمة الله تعالى بأتباع هذا الدين.

فإرسال محمد ﷺ بهذه الرسالة رسالة الإسلام إنما هو من رحمة الله تعالى بجميع الخلق، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[1].

كان دين الإسلام رحمة في الدين وفي الدنيا، أما في الدين: فلأنه جاء والناس في جاهلية وضلالة، وأهل الكتابين - اليهود والنصارى - كانوا في حيرة من أمر دينهم لطول مكثهم وانقطاع تواترهم ووقوع الاختلاف في كتبهم، فبعث الله تعالى محمداً ﷺ، فدعاهم إلى الحق وبين لهم سبيل الثواب، وشرع لهم الأحكام وميز الحلال من الحرام، فكان الإسلام - بكل أحكامه وتشريعاته - رحمة للعالمين.

والله سبحانه وتعالى رحم العالمين بإرسال سيدنا محمد ﷺ؛ لأنه جاءهم بالسعادة الكبرى، والنجاة من الشقاوة العظمى، ونالوا على يديه الخيرات الكثيرة في الآخرة والأولى، وعلمهم بعد الجهالة، وهداهم بعد الضلالة.

فقد بين سبحانه وتعالى أن الغرض الأسمى من إرساله رسوله وبيان شريعته إنما هو تحقيق الرحمة في شتى أنواعها وسائر مظاهرها،

---

(١) آية ١٠٧ من سورة الأنبياء.

ومختلف مجالاتها في الاعتقاد والتعبد والتعامل والتعايش .

وإن من معالم رحمة الإسلام أن جاء في كل أحكامه مراعياً لمصالح العباد بجلب المنافع لهم بما يأمرهم به من أوامر وينهاهم عنه من النواهي، وبدفع المفاسد والمضار عنهم بما يأمرهم به من أوامر وينهاهم عنه من المناهي .

ومن تأمل تشريعات الإسلام كلها يجدها كذلك في تحقيق مصالح العباد ودفع المفاسد عنهم .

جاء الإسلام برعاية مصالح العباد في كليات خمس أساسية: هي حفظ الدين، وحفظ النفس، وحفظ العقل، وحفظ النسل، وحفظ المال.

وإنما كانت عناية الإسلام بهذه الكليات الخمس؛ لأن في الحفاظ عليها واستقامتها صلاحاً للبشرية جميعاً في كل شؤونها في معاشها واستقامة حياتها على الأمن والطمأنينة والسعادة، ولما في حفظ هذه الكليات من المحافظة على المجتمعات البشرية من كل ما ينغص حياتها ويزيل السعادة منها، ويهوي بهذه المجتمعات إلى القلاقل والمحن والفتن .

كما أن المحافظة على هذه الكليات الخمس فيه السعادة في الآخرة بعد البعث بدخول الجنات، وفيه أيضاً السلامة والأمان من العقوبة والعذاب في النار .

وعندما تقوم الحياة بشريعة الإسلام وتطبق أحكامه، فإنها بالضرورة ستحفظ هذه الكليات من التضييع، وحينها ستعيش في أمن ورخاء وعزة وغلبة، وهذه الغايات من أعظم المصالح لها .

وعندما يحصل التفريط بتطبيق شريعة الإسلام، فإن الحياة ستفقد المحافظة على هذه الكليات، وستعرض نفسها للخلل والاضطراب، بل والانهيار بقدر تفريطها فيه بأحكام الشريعة .

وعندما نتأمل أحكام هذه الشريعة الإسلامية الطاهرة نجد أن جميع هذه الأحكام شرعت لحفظ هذه الكليات، فكل حكم شرعي من أمر أو نهي إنما هو لحفظ كلية من هذه الكليات على الأقل، وقد يكون لحفظ أكثر من كلية من هذه الكليات .

فلحفظ الدين أمر الله تعالى بالتوحيد: وهو إفراده سبحانه وتعالى بالعبادة، وأمر بالصلاة والزكاة والصوم وحج بيت الله الحرام .

كما أنه لحفظ الدين حرم الإسلام الشرك بالله، وعبادة غيره معه .

ولحفظ النفس أمر الإسلام بالإنجاب والإكثار من الذرية، وبتربية الأولاد، والرحمة بالوالدين، وأمر بالتطبب والعلاج، وأمر بالأكل من الطيبات .

ولحفظ النفس نهى الإسلام عن قتل النفس والانتحار، ونهى عن قتل النفس أو إيذائها بضرب أو تعذيب بغير حق، ونهى عن تناول الخبائث والمستقذرات التي تضر بالبدن وتهلك النفس .

ولحفظ العقل أمر الإسلام بالعلم وحث عليه، وجعله عبادة يتقرب إلى الله تعالى به ويؤجر عليه العبد، كما أمر بالنظر والتفكر في الملكوت وجعله من العبادات ، كما أمر بتعليم الأولاد وإكسابهم العلوم والمعارف الدينية والدنيوية .

ولحفظ العقل نهى الإسلام عن كل ما يفسد العقل ويضر به مما

يكون فساداً و ضرراً على الفاعل نفسه أو على المجتمع بأكمله، ولذلك جاءت هذه الشريعة بتحريم المخدرات والخمر وسائر المسكرات والمفترات.

ولحفظ النسل جاء الإسلام آمراً بالزواج وجعله من القربات والطاعات، وأن المتزوج مأجور بزواجه، كما هو مأجور بإتيان شهوته مع أهله، وأمر لحفظ النسل بغض البصر، وحفظ الفرج، وصيانة المجتمع من الرذيلة والفساد الخلقي .

ولحفظ النسل نهى الإسلام عن كل ما يفسد على الناس أعراضهم أو يجعلها مهانة مبتذلة، ولذلك حرم الإسلام الزنا وكل ما يدعو إليه ويكون سبباً إليه مما يهيج الغرائز ويؤجج فتنة الرجال بالنساء من النظر المحرم واختلاط الرجال بالنساء الأجنبيات عنهم .

ولحفظ المال أمر الإسلام بالبيع والشراء، كما أمر بكل معاملة للكسب والربح مما فيها كسب وإنماء للمال، وليس فيها ما يضر بالآخرين ويضرهم كالزراعة والصناعة .

كما أنه لحفظ المال أمر الإسلام بالزكاة والصدقة وجعلها سبباً لنفع الآخرين وسبباً للبركة في مال المزكي والمتصدق، كما أمر الإسلام بكل عمل يقدم للآخرين أفراداً أو مجتمعات خيراً لهم في أرزاقهم وجعل ذلك عبادة وطاعة لله يؤجر عليها المتبرع، ومن ذلك أمر الإسلام وحثه وترغيبه بالقرض والهبة والعطية والوصية والوقف، كما أن من ذلك حث الإسلام على السماحة في البيع والشراء وإنظار المعسر، والعفو عن العاجز .

ولحفظ المال نهى الإسلام عن كل معاملة تضر بالآخرين وتأكل أموالهم بالباطل وبغير وجه حق، ومن ذلك تحريم الإسلام للربا والسرقة والغش في البيع والشراء .

ولحفظ المال فقد أمر الإسلام أتباعه بالتوسط في النفقة وفق ما أعطاهم الله من مال، فلا يبخلون على أنفسهم، ولا على من تجب نفقتهم، وكذا منعهم من التبذير والإسراف وإضاعة المال وتكليف النفس ما لا تقدر عليه .

وكل هذه المصالح التي شرعت لها الأحكام ليست خاصة في الحياة الدنيا، فهي كما تدرك بها المصالح الدنيوية للعباد، فهي أيضاً لقيام مصالحهم في الآخرة برضا الله سبحانه وتعالى عنهم وإكرامهم بجنته ورضوانه، ونجاتهم من عقابه وعذابه، كما قال تعال: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ﴾[1].

وجعل الله كمال سعادة الإنسان وتمام تحقق المصالح له بالتزام أحكام دين الإسلام بما أعده الله له من النعيم المقيم، كما قال سبحانه: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ ﴾[2] .

ويكفي في وصف هذه المصلحة الأخروية ما وصف به النبي ﷺ

(١) آية ١٨٥ من سورة آل عمران .

(٢) آية ١٠٣ من سورة هود

جنة الله التي أعدها سبحانه لمن أسلم وأطاع الله بما يرويه ﷺ عن ربه فيقول: «قَالَ اللهُ: أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لاَ عَيْنَ رَأَتْ، وَلاَ أُذُنَ سَمِعَتْ، وَلاَ خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، فَاقْرَؤُوا إِنْ شِئْتُمْ ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾[1] .

وعندما نتأمل أيضاً أحكام شريعة الإسلام بما أمرت به وبما نهت عنه نجد أن كل حكم جاء لمصالح العباد من جلب المنافع لهم، أو دفع وتقليل المفاسد والمضار عنهم

وهذه المنافع والمصالح يُدركها الناس كلهم ولكنه بتفاوت، فهناك من مصالح الإسلام ومنافعه ما يدركه الإنسان العادي لموافقة هذه الأحكام للعقل والفطرة، ووفاء هذه الأحكام بمتطلبات وحاجات الإنسان في شؤون معاشه ومعاده .

ومن هذه المنافع والمصالح ما يدرك بالعلم والتأمل في أحكام هذه الشريعة، فكلما قوي العلم والنظر بأحكام هذه الشريعة المطهرة ازداد الإنسان معرفة وعلماً بالمصالح العظيمة التي جاءت بها .

والمصالح التي جاء بها دين الإسلام في أحكامه مما لا يمكن الإحاطة به، ولكن ما نورده هنا على سبيل التمثيل لا غير .

أمر الله تعالى بالإيمان الكامل الذي يقوم على ستة أركان هي

---

(١) الآية ١٧ من سورة السجدة .

والحديث: رواه البخاري – كتاب بدء الخلق – باب مَا جَاءَ فِي صِفَةِ الجَنَّةِ وَأَنَّهَا مَخْلُوقَة ٤/ ١٤٣ (ح ٣٢٤٤) .

ومسلم – كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها – باب ١ ٨/ ١٤٣ (ح٧٣١٠) .

الإيمان بالله، والإيمان بملائكته، والإيمان بجميع كتبه، والإيمان بجميع رسله، والإيمان باليوم الآخر، والإيمان بالقدر خيره وشره من الله تعالى .

وعندما نتأمل الحِكم العظيمة والمنافع الجليلة لهذا الإيمان المتكامل من جميع جوانبه نجد أن هذا الإيمان يسمو بالنفس البشرية في جوانب كثيرة، ولعل من أعظمها تحقيق الإشباع الفطري باللوذ والالتجاء لله تعالى الكبير المتعال، والارتباط بالخالق الرازق سبحانه وبحمده والذي لا يستغني عنه العبد طرفة عين، والتعبد لله تعالى على وفق ما أمر الله به ويحبه عبر رسله وكتبه .

ومما أمر الله به التوحيد وإفراد الله بالعبادة؛ لأنه هو الخالق الرازق وحده، فهو المستحق لأن يعبد وأن يطاع سبحانه .

وفي هذه العقيدة من المنافع والمصالح ما لا يحصى من توجه القلب لمعبود واحد، وعدم تشتته بين معبودات كثيرة، وسؤال ودعاء من يملك الخلق والنفع والضر دون التشبث بالسراب من دعوة المخلوق الذي لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، فضلاً عن أن يملكه لغيره، وهذا المعتقد الصحيح من محاسنه أنه يربي المؤمن على الكرامة وعزة النفس وعلو القدر، فلا يهين نفسه لأحد ولا يذلها لمخلوق ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾[1] .

كما أن هذه العقيدة تظهر كرامة العبد على الله حيث لم يجعل بينه وبين عبده واسطة، بل كل إنسان يؤمن بالله يتصل بالله خالقه مباشرة

---

(١) آية ١٣٩ من سورة آل عمران .

بعبادته ودعائه وسؤاله حاجاته دون وسيط من البشر، ومن منافع ومصالح هذا التوحيد أنه سبب لنجاة العبد عند الله تعالى، كما قال النبي الكريم ﷺ في حديث مُعَاذٍ رضي الله عنه قَالَ: «كُنْتُ رِدْفَ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى حِمَارٍ يُقَالُ لَهُ عُفَيْرٌ، فَقَالَ: يَا مُعَاذُ هَلْ تَدْرِي حَقَّ الله عَلَى عِبَادِهِ وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى الله ؟ قُلْتُ: الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: فَإِنَّ حَقَّ الله عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلاَ يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَحَقَّ الْعِبَادِ عَلَى الله أَنْ لاَ يُعَذِّبَ مَنْ لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله أَفَلاَ أُبَشِّرُ بِهِ النَّاسَ ؟ قَالَ: لاَ تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَّكِلُوا» [(١)] .

وهذا الإيمان يفك لغز البشرية الحائر الذي تاهت من أجله كثير من الأمم في معرفة سر وجودها في هذه الحياة، فمنذ ينشأ ناشئ المسلمين من أبنائهم وهو يتربى على لا إله إلا الله، يعلم لم خُلق ؟ وما هدفه في الحياة ؟ وماذا بعد الحياة ؟ قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [(٢)]، أما ما بعد الحياة، فيعلم أنه مبعوث مرة أخرى للجزاء والحساب ﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾ ﴾ [(٣)] .

ومن محاسن هذا الإيمان أن هذه العقيدة إذا تمكنت من القلب

---

(١) رواه البخاري – كتاب التوحيد – باب مَا جَاءَ فِي دُعَاءِ النَّبِيِّ ﷺ أُمَّتَهُ إِلَى تَوْحِيدِ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى ٩/ ١٤٠ (ح٧٣٧٣) .

ومسلم – كتاب الإيمان – باب مَنْ لَقِيَ اللهَّ بِالإِيمَانِ وَهُوَ غَيْرُ شَاكٍّ فِيهِ دَخَلَ الْجَنَّةَ وَحَرُمَ عَلَى النَّارِ ١/ ٤٣(ح١٥٣) .

(٢) آية ٥٦ من سورة الذاريات .

(٣) آية ٧ من سورة التغابن .

أضافت إليه الطمأنينة والراحة؛ لاشتماله على المقومات التي تبعث في النفس المؤمنة الراحة النفسية وهدوء الضمير .

فعقيدة الإسلام في القضاء والقدر من مقتضياتها أن يعلم المؤمن أن الخير والشر يجري في الكون بمقادير وموازين وسنن وأسباب اقتضتها حكمة الله عز وجل: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ ﴾[1]، ثم تحدد الآية التي بعدها الهدف من هذا التقرير ﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ﴾[2] .

المؤمن لا يهلكه الحزن إذا أصابه مكروه، كما لا يأخذه البطر والكبر إذا أصابه ما يفرحه ويسره، فهو راض في كلا الحالين، صابر شاكر متواضع معترف لله بالنعمة والمنة والفضل، ولعل هذا من خصائص المؤمنين، يقول النبي الكريم ﷺ في قول يبين لنا جانباً من عظمة هذا الدين وهذه العقيدة: «عَجَبًا لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لأَحَدٍ إِلاَّ لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»[3] .

ولهذا كان من سمات الثابت على هذه العقيدة الصبر والشكر والرضا؛ لأنه يعلم أن أجلة محدود ورزقه محدود وكل أموره بقضاء

---

(١) آية ٢٢ من سورة الحديد .

(٢) آية ٢٣ من سورة الحديد .

(٣) رواه مسلم -كتاب الزهد والرقائق - باب الْمُؤْمِنُ أَمْرُهُ كُلُّهُ خَيْرٌ ٨/ ٢٢٧ (ح٧٦٩٢).

وقدر، فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم .

بل إن المؤمن لا يدرك بهذا: الرضا والتسليم - وهو أمر عظيم- فحسب، بل يدرك مع هذا أجر وثواب هذا التسليم وهذا الرضا حين يلقى الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [١] .

هذه العقيدة الإيمانية تسمو بنفس المؤمن ليدرك لذة هذه الدنيا الحقيقية، وذلك في تسخيرها في طاعة الله عز وجل، وحينئذ يعيش حلاوة الإيمان، ويعيش لذة الإيمان؛ لأنه متمسك بعقيدة صحيحة .

وفي هذه العقيدة حلاوة وطعم، كما في حديث أنس رضي الله عنه يقول ﷺ: «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار» [٢] .

وبهذه العقيدة يذوق المؤمن طعم الإيمان الحق الذي يدرك به السعادة الدنيوية والأخروية، كما قال النبي ﷺ: «ذَاقَ طَعْمَ الإِيمَانِ مَنْ

(١) الآيات ١٥٥-١٥٧ من سورة البقرة .

(٢) رواه البخاري - كتاب الإيمان - باب حلاوة الإيمان ١/ ١٠ (ح١٦) .
ومسلم - كتاب الإيمان - باب بَيَانِ خِصَالٍ مَنِ اتَّصَفَ بِهِنَّ وَجَدَ حَلاَوَةَ الإِيمَانِ ١/ ٤٨ (ح١٧٤) .

رَضي بِاللهِ رَبًّا، وَبِالإِسْلاَمِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولاً» [١] .

وفي أركان الإسلام العملية الخمسة نجد أن أعظمها بعد التوحيد وإفراد الله بالعبادة الشهادة الحقة، والإيمان الصادق بنبوة محمد ﷺ، وأنه مرسل من عند الله اصطفاه الله واجتباه، واختاره لهذه المهمة الشريفة من بين سائر الخلق، فكان هو المبلغ عن الله تعالى، وفي هذا من المصالح للخلق: الرحمة بهم؛ إذ إن مبعثه الشريف إنما كان من رحمة الله تعالى بالخلق ونقلهم من ظلمات الجهل إلى نور العلم، ومن ذل الشرك إلى عز الطاعة، ومن عبادة العباد إلى عبادة رب العباد .

والركن الثاني من أركان الإسلام هو الصلاة التي هي الصلة الحقيقية للعبد بربه عندما يقف بين يديه مقدما بين يدي الصلاة إجلال الله تعالى بالوضوء، واختيار الملابس الطاهرة، والمكان الطاهر، منخلعاً عن الدنيا وهمومها ليناجي ربه سبحانه وتعالى .

وعندما نتأمل الصلاة بأركانها وشروطها وأقوالها وأفعالها نجد أنها تشتمل على حكم ومصالح من أعظم المصالح وأجلها .

الإنسان - أي إنسان - محتاج إلى اتصال بخالقه ومولاه ومناجاته ودعائه، وهذا يتحقق للمسلمين بالصلاة، وهذا الاتصال لا يستغني عنه أحد؛ إذ أن حياة البشر بدون ذلك الاتصال تصبح جحيما لا يطاق، وعذابا وقلقا روحيا ونفسيا يتعذر معه الشعور بطعم الحياة، وهذا ما تؤكده وتبينه فرضية تلاوة سورة الفاتحة في كل ركعة من ركعات الصلاة؛

(١) رواه مسلم - كتاب الإيمان - باب ذَاقَ طَعْمَ الإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللهِ رَبًّا ١/ ٤٦ (ح١٦٠) .

لما تشتمل عليه هذه السورة العظيمة من طلب الهداية التي يحتاجها كل إنسان في كل لحظة من لحظاته، فلا يستغني عن طلب هداية ربه في أي لحظة من اللحظات، كما أن فيها الدعاء والالتجاء إلى الله، وفيها التعرف على الله بأسمائه وصفاته وأفعاله، وفيها التذكير بمعاد الإنسان، وأن نهايته بعد الموت بالرجوع إلى الله تعالى .

وفي الصلاة أيضا يتغلب الإنسان على نزواته وشهواته وأخلاقه الرذيلة، فإن الصلاة تمد المصلي بطاقة وقوة وتعوده على الصبر سواء كان صبرا عن الشهوات المحرمة، أو صبرا على التكاليف والطاعات التي أمره الله تعالى بها، أو صبرا على البلاء والمصائب التي تصيب الإنسان والتي هي من طبيعة الحياة .

والصلاة تربي المسلم على القوة والشجاعة والثقة بالنفس؛ لأنه بصلاته يركن إلى خالقه وبارئه، وهل هنالك قوة أقوى من الله تبارك وتعالى .

والصلاة تربي المسلم على الانضباط في المواعيد مما يحفظ له وقته، وعلى الانضباط في الطاعة والمتابعة .

والصلاة أيضاً أنها تربي في المسلم الشعور بأخوته ومحبته للمسلمين خصوصاً في صلاة الجماعة التي يلتقي فيها المسلمون جميعاً بشتى طبقاتهم الملك والمملوك، والأمير والمأمور، والغني والفقير، والصغير والكبير، والعالم والجاهل، وبمختلف اللغات والأجناس والبلدان كلهم يجمعهم إجابة نداء الله تعالى، وذلك يربي في المسلم الشعور بأنه أخٌ لكل مسلم .

وفي الصلاة راحة القلوب من هموم الدنيا ومشاكلها، ولذلك كان النبي ﷺ إذا أشكل عليه أمر أو حزبه هم فزع إلى الصلاة لما فيها من سكينة القلب والتخفف من أعباء الدنيا بالتعلق بالله ومناجاته .

وقد نادى الله المؤمنين أن يستعينوا بالصلاة، كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ (١) .

الصلاة هي عمود دين الإسلام، وهي صلة بين العبد وبين ربه، وعلى قدر تلك الصلة تُفتح له أبواب الخيرات، وتنقطع أو تقل عنه الشرور والآفات، قال النبي ﷺ: «إن أحدكم إذا كان في صلاته فإنه يناجي ربه» (٢) .

وللصلاة تأثير عجيب في دفع شرور الدنيا والآخرة، ولا سيما إذا أعطيت حقها من التكميل ظاهراً وباطناً؛ فما استدفعت شرور الدنيا والآخرة بمثل الصلاة، ولا استجلبت مصالح الدنيا والآخرة بمثل الصلاة.

والصلاة سبب لاستسهال الصعاب، وتحمل المشاق؛ فحينما تتأزم الأمور وتضيق، وتبلغ القلوب الحناجر يجد الصادقون قيمة الصلاة الخاشعة، وحسن تأثيرها، وبركة نتائجها .

وهي سبب لتكفير السيئات، ورفع الدرجات، وزيادة الحسنات .

وهي سبب لحسن الخلق، وطلاقة الوجه، وطيب النفس وسموها وترفعها.

(١) آية ١٥٣ من سورة البقرة .

(٢) رواه البخاري - كتاب الصلاة - باب حك البزاق باليد من المسجد ١/ ١٢٢ (ح٤٠٥).

وهي المدد الروحي الذي لا ينقطع، والزاد المعنوي الذي لا ينضب.

وهي أعظم غذاء وسقي لشجرة الإيمان؛ فالصلاة تثبت الإيمان وتنميه.

والمحافظة عليها تقوي رغبة الإنسان في فعل الخيرات، وتسهل عليه فعل الطاعات، وتضعف أو تذهب دواعي الشر من نفسه.

والصلاة هي الزاد الذي يتقوى به المسلم للعصمة من الذنوب والمنكرات، كما قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾(١).

والصلاة علاج لأدواء النفس الكثيرة كالبخل، والشح، والحسد، والهلع، والجزع، والخور، وغيرها كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾(٢).

ومن فوائدها الطبية ما فيها من الرياضة المتنوعة المقوية للأعضاء النافعة للبدن، فهي تشتمل على حركات وأوضاع مختلفة تتحرك معها أغلب المفاصل.

ومن تأمل الأمر بالزكاة التي هي حق شرعي في أموال الأغنياء يؤدونه قربة لله تعالى لإخوانهم المستحقين يجد المصالح العظيمة لهذا

---

(١) من آية ٤٥ من سورة العنكبوت.

(٢) الآيات ١٩ - ٢٣ من سورة المعارج.

الإحسان، وهذا البذل لأصحاب الحاجات هو امْتَثَالُ أَمْرِ اللهِ وَرَسُولِهِ، وتقْدِيمُ مَا يُحِبُّهُ اللهُ عَلَى محَبَّةِ المَالِ .

وإخراج الزكاة دليل وبُرْهَانٌ عَلَى إِيمَانِ صَاحِبِهَا بالله تعالى، كَمَا فِي الحَدِيثِ في قوله ﷺ: «وَالصَّدقَةُ بُرْهَانٌ» (١) .

والزكاة شُكْرُ نِعْمَةِ الله المُتَفَضِّلِ عَلَى المُخْرِجِ بِمَا أَعْطَاهُ مِنْ المَالِ، وهي سبب لسلامة المال من الآفات والمهلكات .

وفي إخراج الزكاة تَنْمِيَةُ الأَخْلاقِ الحَسَنَةِ وَالأَعْمَالِ الفَاضِلَةِ الصَّالحَةِ والاتِّصَافِ بَأَوْصَافِ الكُرَمَاءِ، وتَّطْهِيرٌ للنفس مِنْ دَنَسِ الذُّنُوبِ وَالأخْلاقِ الرَّذِيلَةِ، كما قَالَ اللهَ تَعَالى: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ١٠٣﴾ (٢)، فهي تزيل الحَسَد وَالحِقْد وَالبُغْض والكبر .

والمزكي يدرك أشرف محبة وهي محبة الله له؛ لأن المُتَصَدِّقَ محْسِنٌ عَلَى المُتَصَدِّقِ عَلَيْهِ وَاللهُ يُحِبُّ المُحْسِنِينَ، قال الله تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ وَأَحۡسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٩٥﴾ (٣).

بالإضافة إلى محبة خلق الله تعالى، فالنُّفُوسُ مجْبُولَةٌ عَلَى حُبِّ مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْهَا .

---

(١) رواه مسلم – كتاب الطهارة – باب فضل الوضوء ١/ ١٤٠(ح٥٥٦) .

(٢) آية ١٠٣ من سورة التوبة .

(٣) آية ١٩٥ من سورة البقرة .

وإخراج المسلم لزكاته لا يخضع للمعايير المادية بنقص المال بإخراج الزكاة، فالمال لا ينقص بالزكاة، كما قال ﷺ: «مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ»(١)، بل وعد الله مخرجي الزكاة بأكثر من هذا، وهو أن يبارك لهم، وأن يخلف عليهم زكاتهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾(٢).

وفِي إِخْرَاجِ الزَّكَاةِ حَلٌّ لِلأَزَمَاتِ الاقْتِصَادِيَّةِ، وَسُوءِ الحَالَةِ الاجْتِمَاعِيَّةِ، فَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الأَمْوَالِ الزَّكَوِيَّةِ تَنَسَّخُوا مِنْهَا وَوَضَعُوهَا فِي مَوَاضِعِهَا لَقَامَتْ المَصَالِحُ الدِّينِيَّةِ والدُّنْيَوِيَّةِ، وَزَالَتْ الضَّرورَاتِ، وَانْدَفَعَتْ شُرُورُ الفُقُرَاءِ، وَكَانَ ذَلِكَ أَعْظَم حَاجِزٍ وَسدٍّ يَمْنَعُ عَبَثَ المُفْسِدِينَ، وَفِي الحَدِيثِ عن النبي ﷺ يقول: «وَاتَّقُوا الشُّحَّ، فَإِنَّهُ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، حَمَلَهُم عَلى أَنْ سَفُكُوا دِمَاءَهُم وَاسْتَحَلُّوا محَارِمَهُمْ»(٣).

وفي الصوم الذي شرعة الله تعالى وأوجبه في شهر رمضان في كل أيامه بالإمساك عن الأكل والشرب، وإتيان الزوجة من طلوع الفجر حتى غروب الشمس من المصالح العظيمة لمن تأمل حقيقة الصيام.

وبالصوم يدرك المسلم درجة التقوى، وهي من أعلى منازل عباد الله المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا

---

(١) رواه مسلم - كتاب البر والصلة والآداب - باب اسْتِحْبَابِ الْعَفْوِ وَالتَّوَاضُعِ ٢١/٣ (ح٦٧٥٧).

(٢) من آية ٣٩ من سورة سبأ.

(٣) رواه مسلم - كتاب البر والصلة والآداب - باب تَحْرِيمِ الظُّلْمِ ١٨/٨ (ح٦٧٤١).

﴿كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾﴾[١]، فإن النفس إذا امتنعت عن الحلال طمعاً في مرضاة الله تعالى وخوفاً من عقابه، فأولى أن تنقاد إلى الامتناع عن الحرام .

والصوم موجب للرحمة والعطف على الفقراء والمساكين، فإن الإنسان إذا جاع بطنه علم حال الفقراء في جوعهم فيرحمهم ويعطيهم ما يسد به جوعهم، فالصوم يشعر المسلمين بإخوتهم نتيجة الجوع والعطش، فيذكر الغني حاجة الفقير، فيقوم بحقه من الجود والإحسان، ومن تأمل حال المسلمين في رمضان يدرك ما هم فيه من التآلف والتكاتف، وانتشار مظاهر الجود والإحسان نتيجة صومهم .

والمسلمون الصائمون يشعرون بأنهم أمة واحدة يأكلون في وقت واحد ويصومون في وقت واحد .

والصوم فيه قهر الطبع وكسر الشهوة، فهو يربي الإرادة عن اجتناب الهوى وترك المعاصي، وكذلك فإن النفس تتهيأ للعبادة إذا صارت المعدة فارغةً من الطعام الذي يجلب الخمول والنوم .

والصوم بالامتناع عن الأكل والشرب يشعر الغني بنعمة الله سبحانه وتعالى عليه أنه يأكل طول يومه المعتاد مع قدرة مالية وصحة بدنية .

والصوم يربي على حسن الخلق بتحمل الجوع والعطش مع سماحة النفس وعدم الضجر من الحال، كما يربي على الصبر والتحمل وقوة الإرادة، وترويض النفس على ما تكرهه من أجل الله تعالى، فهو يعد

---

(١) آية ١٨٣ من سورة البقرة .

الإنسان لمواجهة جميع احتمالات الحياة بحلوها ومرها وسائر متقلباتها ليجعل منه مسلماً كاملاً في عقله ونفسه وجسمه، يستطيع أن يتحمل تبعات النهوض بمجتمعه عن جدارة .

والصوم فيه كمال الإيمان؛ لأن فيه تقديماً لمراد الله تعالى على مراد النفس، فالنفس بطبعها تريد الحرية في أكلها وشربها تأتيه متى أرادت ومراد الله يمنعه حال الصوم، والمسلم بالصوم يقدم مراد الله على مراد نفسه .

في الصيام تخليص للإنسان من رِق الشهوة والعبودية للمادة، وتربية عملية على ضبط الغرائز والسيطرة عليها، وإشعار للإنسان .

والصوم علاج لقوة الشهوة لمن لا يستطيع الزواج، ففي الحديث يقول ﷺ: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصيام فإنه له وجاء»[1] أي قاطع .

والصائم الذي يمتنع عن المحرمات وعن الحلال الذي تدعو له الشهوة إنسان عزيز كريم، يشعر بآدميته وبامتيازه عن الحيوانات التي تسيِّرها الغرائز .

والصيام أيضاً يعوِّد التواضع وخفض الجناح ولين الجانب،

(١) رواه البخاري – كتاب النكاح – بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ لأَنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ ٧/ ٣ (ح٥٠٦٥) .
ومسلم – كتاب النكاح – باب اسْتِحْبَابِ النِّكَاحِ لِمَنْ تَاقَتْ نَفْسُهُ إِلَيْهِ وَوَجَدَ مُؤْنَةً وَاشْتِغَالِ مَنْ عَجَزَ عَنِ الْمُؤَنِ بِالصَّوْمِ ٤/ ١٢٨ (ح٣٤٦٤) .

وبالتالي يعرف الإنسان قدره ويحس بضعفه، ومن عرف قدر نفسه تفتحت له أبواب الخير واستقام به الطريق .

إن الصيام إلى جانب ما فيه من صحة النفس فيه صحة البدن نتيجة تقليل الطعام والشراب، وإراحة المعدة وتخليص للجسم من بعض الفضلات والترسبات ، وهو سبب للشفاء من كثير من الأمراض .

والصوم يعوِّد النظام والتحري والدقة، وذلك بالتزام الإمساك عند وقت معين وحرمة الإفطار قبل حلول موعده، قال تعالى: ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ﴾[1] .

والصيام الكامل عن كل المشتهيات يكف الإنسان عن الكذب والزور والفحش والنظر المحرم والغش وسائر المحرمات، يقول ﷺ: «من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه»[2] والزور هنا معناه الباطل بكل مظاهره وألوانه .

وآخر أركان الإسلام الحج إلى بيت الله الحرام في مكة المكرمة في العمر مرة على سبيل الوجوب لمن كان قادراً بدنياً ومالياً، ومن لم يكن قادراً فليس عليه حج رحمة من الله وتخفيفاً .

وفي الحج من المصالح والمنافع التي تعود على الحاج نفسه وعلى

(١) من آية ١٨٧ من سورة البقرة .

(٢) رواه البخاري - كتاب الصوم - باب من لم يدع قول الزور والعمل به في الصوم ٣/ ٣٣ (ح١٩٠٣) .

الأمة كلها بمجموعها الشيء العظيم، ويكفي أن الله تعالى علل وجوب الحج على المسلمين بشهود المنافع لهم حين يحجون البيت الحرام، قال الله تعالى: ﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ ﴾[1].

ومن تأمل الآيات الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة المتحدثة عن الحج، وكذا من تأمل حال الحج وصفته يدرك كثيراً من هذه المنافع والمصالح التي من أجلها شرع الله الحج للمسلمين.

فالحج يحقق من خلال جميع مناسكه التوحيد الخالص والصادق لله تعالى، وإفراده بالعبادة، والسعي لتحقيق مرضاته وحده، ومن خلال اتباع سنة النبي محمد ﷺ، فهي تحقيق عملي لكلمة الإسلام الكبرى وشهادته العظمى «أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله».

وأعظم مصالح الحج ومنافعه تحقيق التوحيد الخالص، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا

(١) الآيات ٢٧-٣٠ من سورة الحج.

وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ ﴾ (١) .

ومن مصالح الحج ومنافعه أن الحاج ينال بنسكه تقوى الله تعالى نتيجة تعظيمه لشعائر الله والتزامه ما أمر الله به في الحج، قال الله تعالى في آيات الحج: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ ﴾(٢) .

والحج يقيم حياة الحاج على ذكر الله تعالى وتعظيمه الذكر باللسان؛ إذ كل مناسك الحج تقوم على الذكر والدعاء والتلبية بالإضافة للذكر القلبي والعملي .

والحج يربي المسلم على التسليم والانقياد لله تعالى طواعية واختياراً، وذلك من خلال أداء أعمال في أماكن مخصوصة وأزمنة مخصوصة قد لا يدرك المسلم الحكمة منها، ولكن لا يسوقه لفعلها شيء إلا أن الله أمره بفعلها، فيفعلها امتثالاً لأمر الله تعالى .

والحج فرصة للمسلم المذنب المسرف بالذنب والخطيئة ليحج حجاً كاملاً، فيكسب من ذلك محو ذنوبه وغفرانها من الله تعالى، يقول ﷺ: «من أتى هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق رجع كما ولدته أمه» (٣) أي بلا ذنب وخطيئة .

وفي قصة إسلام عمرو بن العاص ﷺ يقول هو في وصفها: «أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ، فَقُلْتُ: ابْسُطْ يَمِينَكَ فَلأُبَايِعْكَ - يعني على الإسلام - فَبَسَطَ

---

(١) آية ٢٦ من سورة الحج .

(٢) آية ٣٢ من سورة الحج .

(٣) رواه مسلم - كتاب الحج - باب فِي فَضْلِ الحَجِّ وَالْعُمْرَةِ وَيَوْمِ عَرَفَةَ ٤/ ١٠٧ (ح٣٣٥٧) .

يَمِينَهُ - قَالَ - فَقَبَضْتُ يَدِي، قَالَ: مَا لَكَ يَا عَمْرُو ؟ قَالَ: قُلْتُ أَرَدْتُ أَنْ أَشْتَرِطَ، قَالَ: تَشْتَرِطُ بِمَاذَا ؟ قُلْتُ: أَنْ يُغْفَرَ لِي، قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الإِسْلاَمَ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ، وَأَنَّ الْهِجْرَةَ تَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهَا، وَأَنَّ الحَجَّ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ» (١) .

وفي الحج المنافع الدنيوية والدينية للحاج من إيجاد الأخوة الإسلامية بين المسلمين نتيجة اجتماع المسلمين في مكان واحد وبلباس واحد، فتذوب الفوارق في الجنس واللون والبلدان واللغات والفقر والغنى، فكلهم سواسية جمعهم نداء الله ومشاعر الحج، كما يحصل للمسلمين من الوحدة والألفة واجتماع الكلمة والتعارف والتشاور ما لا يحصل في أي تجمع بشري، ومن تجمعهم يتعرف المسلمون على همومهم، ويعالجون مشاكلهم، ويرحم قويهم ضعيفهم، ويوحدون كلمتهم .

وفي الحج فرص تجارية واقتصادية، فهو فرصة مأذونة من الله أن أداء المناسك لا يمنع من التكسب باستغلال التجمع الكبير من خلال البيع والشراء، كما قال الله تعالى في آيات الحج: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ (٢) والفضل من الرب سبحانه هنا هو البيع والشراء .

والحج يعلِّم المسلمين وبأسلوب عملي تطبيقي الأخلاق الفاضلة؛

---

(١) رواه مسلم - كتاب الإيمان - باب كَوْنِ الإِسْلاَمِ يَهْدِمُ مَا قَبْلَهُ، وَكَذَا الْهِجْرَةُ وَالحَجُّ ١/ ٧٨ (ح٣٣٦) .

(٢) من آية ١٩٨ من سورة البقرة .

إذ إن ظروف الزمان والمكان في الحج نتيجة أن المسلمين يحجون لمكان واحد في زمن واحد، فيحصل من الزحام والضيق ما يحتاج لأخلاق عالية من الصبر والتحمل والمداراة وكظم الغيظ، فيسير في كل المشاعر بهدوء وسكينة، فلا يرفع صوتاً، ولا يصخب في قول ولا فعل، بل وأزكى من ذلك بذل المعروف والإحسان لإخوانه المسلمين ممن يشاركونه الحج، يرجو بذلك الأجر من الله تعالى الذي وعد الله به الحاج.

* * *

الإسلام دين اليسر والسماحة

من أبرز خصائص التشريع الإسلامي أنه دين اليسر والسهولة والسماحة، كما وصفه ﷺ بقوله: «إن هذا الدين يسر»[١]، وكما في قوله ﷺ: «بعثت بالحنيفية السمحة»[٢] .

واليسر والسماحة في دين الإسلام منهج يقوم عليه في كل أحكامه، بل اليسر والسماحة من خصائص دين الإسلام التي تميز بها على سائر الأديان، والتيسير ورفع الحرج والمشقة على الناس في الإسلام له صور تدرك بتأمل أحكام هذه الشريعة المطهرة المستمدة من كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ .

وإن الناظر في أحكام هذه الشريعة المطهرة ليجد صوراً عظيمه لرفقها وسهولتها ويسرها

فمن يسر هذه الشريعة أن الله تعالى نفى تكليف عباده ما لا يطيقون وما ليس بوسعهم وقدرتهم، فليس ثمت حكم مما شرعه الله تعالى خارجاً عن طاقة وكلفة العباد، بل كل ما كلفوا به في طاقتهم وقدرتهم،

(١) رواه البخاري – كتاب الإيمان – باب إن هذا الدين يسر ١/ ٩٣ (ح٣٩) .

(٢) من حديث عائشة:

أخرجه الديلمي (جامع الأحاديث) ١٢/ ٢٦٠ (ح١١٨٧٢) .

وقال العجلوني في كشف الخفاء ١/ ٥٢:» سنده حسن» .

قال الله تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾[(١)]، وقال سبحانه: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾[(٢)]، وقال سبحانه: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾ ﴾[(٣)].

وعلى القول بعدم تكليف الله لعباده ما لا يطيقون بنى علماء الإسلام أحكاماً كثيرة، كعدم مؤاخذة الناسي حال نسيانه، والغافل حال غفلته، والمجنون، والمكره، وغيرها من المسائل.

ومن يسر هذه الشريعة أن الله تعالى برحمته لما نفى تكليف أهل الإسلام بما لا يطيقون لم يكن معنى ذلك أنه كلفهم كل ما يطيقون، بل برحمته لم يكلفهم إلا بعض ما يطيقون؛ إذ لو كلفهم أكثر مما كلفهم لاستطاعوا، ولكن من رحمته بهم سبحانه أنه كلفهم بعض ما يطيقون لا كل ما يطيقون.

يشهد لهذا الدليل و واقع الشريعة.

فقد دل قوله تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾[(٤)] بأن الله لم يكلف العباد إلا ببعض ما يطيقون أخذاً من أن الوسع دون الطاقة، وهذا هو واقع أحكام الشريعة حيث تظل الشريعة في أحكامها شاهدة،

---

(١) من آية ٢٨٦ من سورة البقرة.

(٢) آية ٤٢ من سورة الأعراف.

(٣) من آية ٧ من سورة الطلاق.

(٤) من آية ٢٨٦ من سورة البقرة.

فإن الطاقة البشرية قادرة على التزام ما هو أشد وأكثر مما كلفت به من الشريعة، ولكنها سعة رحمة الله وفضله .

فالمسلمون يستطيعون أن يصلوا أكثر من خمس صلوات في اليوم والليلة، ويستطيعون أن يصوموا أكثر من شهر في العام، ويستطيعون إخراج أكثر من الأموال المقدرة في الشرع للزكاة، ولكن الله بحكمته وبرحمته طلب منهم بعض ما يستطيعونه لا كل ما يستطيعون.

ومن يسر هذه الشريعة أن منَّ الله تعالى على هذه الأمة برفع الآصار والأغلال الشديدة والتي كانت على الأمم السابقة، وإن كانت داخلة في المقدور والطاقة .

فكثير من الأمم السابقة للإسلام كان من دينها أوامر هي شاقة عليهم وإن كانت في مقدورهم، فكان من خيرية أمة الإسلام ومن كرامتها عند الله تعالى أن رفع الله عنها الآصار والأغلال التي كانت على من قبلهم .

قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ (١) .

وقال تعالى مخبراً عن دعاء المؤمنين: ﴿ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ﴾ (٢) فأجابهم الله إكراماً لهم، وقال لهم:

---

(١) من آية ١٥٧ من سورة الأعراف .

(٢) من آية ٢٨٦ من سورة البقرة .

«قد فعلت» (١).

فهذه الآية أصل عظيم في الدين وركن من أركان شريعة المسلمين شرفنا الله سبحانه على الأمم بها، فلم يحملنا إصراً ولا كلفنا في مشقةٍ أمراً، وقد كان من سلف بني إسرائيل إذا أصاب البول ثوب أحدهم قرضه بالمقراض .

وثمت أحكام كثيرة كانت موضع التشديد في الأديان السابقة، ثم كانت محل اليسر والسماحة في دين الإسلام، فقد كان اليهود لا تصح لهم صلاة إلا في بيعهم وكنائسهم، ولا يطهرهم الماء من النجاسات، وقد حرمت عليهم بعض الطيبات عقوبة .

ومع أن الشريعة سمحة سهلة لا كلفة فيها ولا مشقة فيها، فإن الله تعالى يخففها عند مظنة المشقة العارضة لكبر، ومرض، وسفر، وإكراه، ونسيان، وجهل، وعسر، وعموم البلوى، ونحوهما من موجبات التخفيف .

فالأحكام التي ينشأ عن تطبيقها حرج على المكلف ومشقة في نفسه أو ماله، فالشريعة تخففها بما يقع تحت قدرة المكلف دون عسر أو إحراج، وهذا التيسير واقع في جميع أحكام الشريعة .

ففي الصلاة: الصلاة واجبة على الرجال في المسجد جماعة ويسقط وجوب الجماعة عند العجز البدني كالمرض والكبر .

---

(١) من حديث ابن عباس: رواه مسلم - كتاب الإيمان - باب بيان تجاوز الله تعالى عن حديث النفس والخواطر بالقلب إذا لم تستقر، وبيان أنه سبحانه لم يكلف إلا ما يطاق، وبيان حكم الهم بالحسنة وبالسيئة ١/ ٨١ (ح٣٤٥) .

والصلاة تجب بعدد ركعاتها لكل فرض صلاة في وقتها، ومع الحاجة في السفر فإنه يجمع الظهر والعصر في وقت أي واحدة منهما وكذلك المغرب والعشاء، ويخفف مقدار الصلوات ذوات الأربع ركعات إلى ركعتين .

والمريض أيضاً له أن يجمع الظهر والعصر في وقت أي واحدة منهما وكذلك المغرب والعشاء .

والوضوء بالماء مأمور به للصلاة، ومع ذلك إذا تعذر حصوله أو كان استعمال الماء يشق على الإنسان فإنه يعفى عن استعماله كالمريض، والذي في البرد الشديد .

والصوم الواجب في رمضان يسقط عن المريض والمسافر ليقضياه بعد الشفاء وانتهاء السفر .

وأما المريض المستمر مرضه أو الكبير الذي لا يقدر على الصوم، فلا صوم عليهما أصلاً ويطعمان عن كل يوم مسكيناً .

والمرأة الحائض والنفساء تؤجلان الصوم، كما أن للمرأة الحامل والمرأة المرضع تأجيل إذا رأتا أن الصوم يضعف بدنهما ويشق عليهما، أو يضر بالمولود أو الجنين .

والحج لا يجب إلا مرة في العمر لمن كان مستطيعاً بدنياً ولديه قدرة مالية على نفقة الحج تزيد عن حاجته، فلا يضيق في نفقته على نفسه ولا على أسرته ليحج، ومن لم يكن قادراً فلا حج عليه أصلاً، كما قال تعالى:

﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ (١).

وكل ما تقدم هو أمثلة يسيرة لسماحة الإسلام ويسره، ومن تأمل أحكام الشريعة ونظر فيها وجد شيئاً عظيماً من أمثال هذا .

وإن من معالم يسر هذه الشريعة أن الله تعالى يسر على أهل الإسلام فلم يؤاخذهم ولم يعاقبهم على ما وقع منهم من مخالفات شرعية إذا كان وقوعها من باب الخطأ الذي لم تتعمده قلوبهم، أو وقع منهم نسياناً وذهولاً، أو كانوا مكرهين على هذا الفعل أو مضطرين إليه، أو كانوا جاهلين بحكمه كما قال ﷺ: «إن الله تجاوز عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه» (٢) .

ولو أن الإنسان قرأ القرآن الكريم والسنة النبوية الصادرة من النبي ﷺ لأدرك أمثلة كثيرة لتخفيف أحكام الإسلام ويسرها .

ويكفي أن كل أمر يأمر الله به أهل الإسلام أو يأمرهم به نبيهم محمد ﷺ فإنما هو مشروط بقدرتهم واستطاعتها، فإن كان يشق عليهم فهم غير مأمورين به، كما يقول النبي ﷺ: «إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم» (٣) .

---

(١) من آية ٩٧ من سورة آل عمران .

(٢) رواه ابن ماجه – كتاب الطلاق – باب طلاق المكره والناسي ص ٢٩٢(ح ٢٠٤٣).
والحاكم في المستدرك – كتاب الطلاق ٢/ ١٩٨، وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه .

(٣) رواه البخاري – كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة – باب ما يكره من كثرة السؤال وتكلف ما لا يعنيه ١٣/ ٢٦٥ (ح٧٢٨٨) .
ومسلم – كتاب الحج – باب فرض الحج مرة في العمر٤/ ١٠٢ (ح ٣٣٢١) .

و يكفي في الدلالة على هذا ما يؤكده القرآن الكريم حين يأتي بذكر الأحكام والتكليفات أن الله لا يريد بالخلق الحرج، كما في قوله تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾(١)، وقوله سبحانه: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾(٢)، وقوله سبحانه: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾(٣).

وهذه الرخص التي يرخص الله بها وييسر لكمال رحمة الله بأهل الإسلام تبرز لنا الأدلة الشرعية أن استعمالها والأخذ بها هو الأحب إلى الله تعالى وليس الأحب إليه المشقة علينا، يقول ﷺ : «إن الله يحب أن تؤتى رخصة» (٤).

ومن صور يسر الدين وسماحته أن الإسلام لم يأذن للعبد أن يشق على نفسه بإلزامها ما يجلب لها المشقة، وإن كان يفعل ذلك ظاناً أنه يزيد في حسناته أو يرفع في درجاته فإن الله برحمته يمنع من ذلك .

وقد كان النبي ﷺ يمنع أصحابه أن يعملوا الأعمال التي فيها مشقة عليهم وإن كانوا مجتهدين في ذلك؛ ذلك أن المكلف لا يملك حق التشريع ولا الإلزام بالطاعات لا لنفسه ولا لغيره، بل هذا مما حذر الله

---

(١) من آية ٦ من سورة المائدة .

(٢) من آية ١٨٥ من سورة البقرة .

(٣) من آية ١٦ من سورة التغابن .

(٤) رواه الإمام أحمد في المسند ١٠/ ١٠٧ (ح٥٨٦٦) .
وقال شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح .
وصححه الألباني كما في صحيح الترغيب والترهيب ١/ ٢٥٦.

منه عباده فنهاهم أن يشرعوا معه، كيف إذا كان ذلك بأعمال تشق عليهم وتؤذيهم .

وفي حديث أنس بن مالك ﷺ يقول: «جاء ثلاثة رهط إلى بيوت النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ، فلما أخبروا كأنهم تقالوها – أي رأوا أنها قليلة – فقالوا: وأين نحن من النبي ﷺ قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، قال أحدهم: أما أنا فإني أصلي الليل أبداً، وقال آخر: أنا أصوم النهار ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً، فجاء رسول الله ﷺ إليهم فقال: أنتم الذين قلتم كذا وكذا ؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، ولكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»(١) .

* * *

(١) رواه البخاري – كتاب النكاح – باب الترغيب في النكاح لقوله تعالى: ﴿فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء﴾ ٩/ ١٠٤ (ح٥٠٦٣) .
ومسلم – كتاب النكاح – باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه ووجد مؤنة، واشتغال من عجز عن المؤن بالصوم ٤/ ١٢٩(ح٣٤٦٩) .

الإسلام دين العدل

من أعظم خصائص هذا الدين ومزاياه العظيمة أنه دين العدل؛ إذ إن مصدره من الله تعالى وهو الحكم العدل الذي لا يظلم أحداً حاشاه، قال تعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾(١)، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾(٢)، ولذلك جاءت جميع أحكام هذا الدين تحمل لواء العدل شعاراً لها في كل شؤونها.

وإذا كان العدل من الصفات المحببة للنفوس فإن مما يجمل هذا الدين العظيم دين الإسلام أنه دين العدل، فإن من أعظم صور عظمة هذا الدين عدله في أحكامه، وعدله بين أتباعه، بل وحتى العدل مع المخالفين له.

وإن من أعظم العدل في الإسلام ما جاء من وجوب التوحيد، فإن الله هو الخالق الرازق المدبر سبحانه، فكان العدل أن يعبد وحده دون من سواه، وكان من الظلم في دين الإسلام أن يساوى مع الله غيره في العبادة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾(٣).

---

(١) من آية ٤٩ من سورة الكهف.

(٢) آية ٤٠ من سورة النساء.

(٣) من آية ١٣ من سورة لقمان.

وإن من عدل الإسلام أن جاءت أحكامه مخاطبة الجميع بلا استثناءات ولا خصائص، فكل مسلم يؤمن بالله ورسوله يجب عليه التوحيد والإيمان والصلاة والصوم والزكاة والصوم والحج، فقد خاطب الله بها جميع المؤمنين بلا استثناء حتى النبي الكريم ﷺ هو مكلف ومأمور بما كُلِّفَ وأمر به أفراد الأمة .

وحين تسقط إحدى العبادات أو بعضها، فإنما هو وفق قواعد يعذر بها المسلم كل مسلم دون مزية وخصيصة، فكل من تحقق فيه سبب العذر عن العبادة فهو معذور أياً كان هو .

فأحكام الإسلام وإلزاماته تجري على الملك والمملوك، والأمير والمأمور، والغني والفقير، والكبير والصغير، لا تعيش أحكام الإسلام الطبقية والنخبوية، بل يجمع الجميع العدل في مقام العبودية لله .

ومن العدل في الإسلام أن قانون العقوبات التي حكم الله بها لمن خالف أمر الله تعالى أو أمر رسول الله ﷺ تطال جميع الناس بلا استثناء قريب لقربه ولا شريف لشرفه، كما أنها لا تقسو على ضعيف مسكين لضعفه وعجزه، بل الجميع أمام أحكام الله بالسوية، وهذا محمد ﷺ وهو أفضل خلق الله على الله تعالى يقسم أن ابنته فاطمة - وهي من أحب الناس إليه - لو أنها سرقت لما تردد بقطع يدها، يقول ﷺ: «إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الحَدَّ، وَأَيْمُ اللهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ ابْنَةَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ

لَقَطَعْتُ يَدَهَا»[(١)].

وإذا كان هذا في التكليف بالأحكام، فهو أيضاً في الإثابة عليها، فكل من عمل خيرا فإن الله تعالى بعدله ورحمته يوفيه أجره غير منقوص.

ومن كمال عدل الله تعالى أن من عمل الصالحات فإن الله تعالى يجازيه عليها بالأجر الدنيوي والأخروي، أما الدنيوي فبما ييسر له العبد من التوفيق والسعادة والرزق، وبما يصرفه عنه من المصائب والآلام، ومن إدراك محبة الله تعالى ونصره ومعيته، وأما الأخروي فبالثواب والأجر الذي يوصل العبد لرضوان الله وجنته، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ﴾[(٢)]، وقال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٩٧﴾[(٣)].

ومن عدله سبحانه أن الكافر والعاصي يستحقان نصيبهما من العقوبة في الدنيا والآخرة جزاءً وفاقا ولا يظلم ربك أحداً، فكل من عصى الله تعالى فقد استوجب عقاب الله تعالى إلا أن تناله رحمة الله وعفوه ومغفرته بشرط ألا يكون ذنبه شركا بالله تعالى، فإن الله سبحانه توعد أنه لا يغفر الشرك به ويغفر ما دون ذلك رحمة وإحساناً لمن شاء من عباده ،

---

(١) رواه البخاري – كتاب أحاديث الأنبياء – بَابٌ ٤/ ٢١٠ (ح ٣٤٧٥) .
ومسلم – كتاب – باب قَطْعِ السَّارِقِ الشَّرِيفِ وَغَيْرِهِ وَالنَّهْيِ عَنِ الشَّفَاعَةِ فِي الْحُدُودِ ٥/ ١١٤ (ح ٤٥٠٥) .

(٢) من الآيتين ٢و٣ من سورة الطلاق .

(٣) آية ٩٧ من سورة النحل .

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ ﴾(١) .

ومن عدل الله تعالى أنه لم يسو في الجزاء والثواب والعقاب بين المؤمن والكافر: ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤۡمِنٗا كَمَن كَانَ فَاسِقٗاۚ لَّا يَسۡتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡمَأۡوَىٰ نُزُلَۢا بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمۡ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾(٢) .

وإذا كان من رحمته سبحانه أنه يغفر الذنوب جميعها ويسترها على عبده، فإن من عدله أن الذنوب والمعاصي التي فيها حقوق للعباد كمن يظلم الناس في أموالهم أو أعراضهم، فإنه لا يغفرها إلا أن يعفو من وقع عليه الخطأ ويصفح أو يأخذ حقه، فإن كمال العدل أن يحفظ حق المظلوم وأن يجعل الأمر إليه إن شاء أخذ حقه وإن شاء عفا عنه .

وإن من العدل في دين الإسلام ما أمر الله به المسلمين من العدل بينهم في تعاملهم مع بعضهم، وفي تعاملهم مع غيرهم من غير المسلمين.

أمر الله تعالى المسلمين جميعاً بالعدل في جميع تعاملاتهم حكاماً و محكومين، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ

(١) آية ٤٨ من سورة النساء .

(٢) الآيات ١٨-٢٠ من سورة السجدة .

تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ [(١)].

وأثنى الله سبحانه على من لزم العدل وجعلهم من صفوة خلقه أهل النجاة والأمان في الآخرة، ولما عدد النبي ﷺ السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم القيامة جعل أهل العدل أولهم بقوله: «إمام عادل» [(٢)]، والإمام هنا كل من ولي أمراً من أمور المسلمين فعدل بينهم فيه .

وترغيباً للمسلمين في العدل وحثاً لهم عليه فقد وعد الله العادلين بالجزاء العظيم والمنزلة الرفيعة عنده يوم القيامة، يقول ﷺ: «المُقْسِطُونَ عِنْدَ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ عَزَّ وَجَلَّ، وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ، الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ، وَأَهْلِيهِمْ، وَمَا وَلُوا»[(٣)].

والأمر بالعدل في الإسلام جاء في كل أمور الحياة، فقد أمر الله بالعدل في الولايات، والعدل في فصل الخصومات، والعدل بين الزوجات، والعدل بين الأولاد، والعدل في أداء كل الحقوق المالية والمعنوية من البيع والتجارة وسائر العقود، وكان من وصية النبي ﷺ للآباء: «فَاتَّقُوا اللهَ وَاعْدِلُوا بَيْنَ أَوْلاَدِكُمْ» [(٤)].

وإن من كمال تعاليم الإسلام أن العدل منهج إسلامي في كل

---

(١) آية ٩٠ من سورة النحل .

(٢) رواه البخاري – كتاب المحاربين من أهل الكفر والردة – باب فضل من ترك الفواحش ٨/ ٢٠١ (ح ٦٨٠٦) .

(٣) رواه الإمام أحمد في المسند ١١/ ٣٢ (ح ٦٤٩٢) .
وقال شعيب الأرناؤوط: حديث صحيح على شرط الشيخين .

(٤) رواه البخاري – كتاب الهبة وفضلها والتحريض عليها – باب الإشهاد في الهبة ٣/ ٢٠١ (ح ٢٥٨٧) .

الأحوال مع الموافق والمخالف، ومع المسلم والكافر، عدل في الأقوال، وعدل في الأفعال، وعدل في الأحكام على الآخرين، وعدل في المواقف، وقد جاء تعليم القرآن الكريم لأهل الإسلام بالأمر بالعدل حتى مع من معهم خصومة وشحناء وبغضاء دينية أو دنيوية، فإن هذا لا يمنع من وجوب العدل معهم، قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾[١].

* * *

(١) آية ٨ من سورة المائدة.

الإسلام دين الأخلاق

الأخلاق الكريمة هي سر من أسرار سعادة المجتمعات والأفراد، ولأن الإسلام دين السعادة الدنيوية والأخروية، فقد كانت الأخلاق الفاضلة من أقوى ركائزه في العقيدة والعبادة والسلوك .

الإسلام دين الأخلاق بكل أحكامه وكل عباداته وكل معاملاته، بل في كل شؤونه .

ولو أن الإنسان أجال نظره في أحكام شريعة الإسلام المطهرة لوجد أنها في كل حكم من أحكامها تعنى بالجانب الخلقي، ويكفي أن الأخلاق وحسن التعامل من الإيمان ومن أوثق عرى الإسلام، ويكفي أن النبي محمد ﷺ حين يتحدث عن أسباب بعثته الشريفة يخبر أن من أسبابها أنه بعث ليتمم مكارم وصالح الأخلاق حيث يقول ﷺ: «إنما بعثت لأتمم مكارم - وفي رواية - صالح الأخلاق» (١) .

القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة الصادرة من النبي ﷺ فيهما تعليم وإرشاد وتربية على أكمل الأخلاق، وأحسن الآداب، وأسمى الأوصاف، وحثا عليها بكلِّ وسيلة، وزجرا عن ضدها، لا يوجد خُلقٌ كامل وإلا وقد دلّ عليه القرآن والسنة، ولا أدب حميد إلا وقد دعيا إليه وبيّناه؛ ذلك أن الأخلاق الكاملة والآداب السامية تجعل صاحبها مستقيم

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده ١٤/ ٥١٢ (ح ٨٩٥٢) وصححه الألباني .

الظاهر والباطن، معتدل الأحوال، مكتمل الأوصاف الحسنة، طاهر القلب نقِيَّه من كلِّ درن وآفة ونقص، قوي القلب، متوجهاً قلبه إلى أعلى الأمور وأنفعها، قائماً بالحقوق الواجبة والمستحبة، محموداً عند الله وعند خلقه، قد حاز الشرف والاعتبار الحقيقي، وسلم من كلِّ دنس وآفة، قد تواطأ ظاهره وباطنه على الاستقامة، وسلوكِ طريق الفلاح .

وقد جاء الإسلام بالأمر بكل خلق كريم فاضل من الصبر والحلم والأناة والصدق والعفة والنزاهة والشجاعة والمروءة والكرم والعفو والصفح والجود والسخاء والنصح .

كما جاء الإسلام بكل معاملة تزكي هذه الأخلاق وتعليها وتظهر جمال سلوك المسلم، ولذا جاءت الشريعة بالأمر ببر الوالدين، وصلة الرحم، وحسن العشرة بين الزوجين، والإحسان إلى الجار، وإكرام الضيف، وبذل المعروف، والعفو عن المخطئ، وتفريج الكربة، وغفران الزلة، والصدق في البيع والشراء، وغيرها .

وكما جاء الإسلام بالأمر بهذه الأخلاق الكريمة فقد أصدر نهيه للمسلمين عن كل خلق قبيح يجلب العداوة والبغضاء، فقد حرم الله تعالى الغدر والخيانة ونقض العهد والكذب والفحش واللعن والظلم وقبيح القول والغمز واللمز والغيبة والنميمة وقول الزور .

وإن المتأمل للعبادات في الإسلام ليجد أنها كلها تقوم على مقاصد لتشريعها، وإن من أعظم مقاصدها بث روح الأخوة الإسلامية بين المسلمين وجعل أعظم طريق لتحقيق هذا المقصد هو طريق الأخلاق .

فالصلاة فيها اجتماع وائتلاف، والزكاة فيها رحمة وبذل وكرم،

والصوم فيه تعرف على أحوال الفقراء بما يصدر عنه من إحسان وجود، والحج تربية عملية على الأخلاق كالصبر والأخوة والتعارف بين المسلمين.

والمعاملات المالية في الإسلام فيها المباح المطلوب الذي يؤجر عليها المسلم، وفيها المحرم الممنوع، ولو تأملنا أسباب حرمة ما حرم منها لوجدنا أن من أعظم أسبابه ما يكون في طبيعة المعاملة من هدر الأخلاق الإسلامية في العقد من غش، أو حيلة، أو ظلم، أو أكل للمال بالباطل، أو غصب، أو قهر للنفوس بأخذ أموالها، ونحو ذلك، وذلك كله موجود في المعاملات المحرمة كالربا والقمار والميسر والبيوع التي فيها غش في المعاملة بأي نوع .

حتى المعاملات المباحة فإن الإسلام يمنعها إن جاء فيها ما يهز القيمة الخلقية للمسلم، ولذلك حرم الله البيع إلا عن تراض بين المتبايعين وبيان للمبيع على حقيقته، وقد بين ﷺ أن الصدق والبيان في البيع والشراء وغيرهما من العقود هما سبب البركة في المال، يقول ﷺ: «الْبَيِّعَانِ بِالْخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا، - أَوْ قَالَ حَتَّى يَتَفَرَّقَا - فَإِنْ صَدَقَا وَبَيَّنَا بُورِكَ لَهُمَا فِي بَيْعِهِمَا، وَإِنْ كَتَمَا وَكَذَبَا مُحِقَتْ بَرَكَةُ بَيْعِهِمَا»[١] .

كما حرم الله البيع على البيع، والسوم على السوم؛ لما يجلبانه من العداوة والخلاف والنزاع .

لقد كان من عظمة الإسلام أن جعل الأخلاق عبادة بذاتها لا يقل

(١) رواه البخاري - كتاب البيوع - باب إِذَا بَيَّنَ الْبَيِّعَانِ وَلَمْ يَكْتُمَا وَنَصَحَا ٣/ ٧٦ (ح٢٠٧٩) .
ومسلم - كتاب البيوع - باب ثُبُوتِ خِيَارِ الْمَجْلِسِ لِلْمُتَبَايِعَيْنِ ٥/ ١٠ (ح٣٩٣٧) .

أجرها عن أجر العبادة البدنية، بل قد تماثلها، كما قال ﷺ: «إِنَّ المُؤْمِنَ لَيُدْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ» (١) .

ولذلك أمر الله رسوله بحسن الخلق، كما قال تعالى: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾ (٢)، ورتب الله تعالى الأجور العظيمة والمنازل الكريمة لأهل الخلق الحسن، كما قال صاحب رسول الله ﷺ عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما: «لَمْ يَكُنِ النَّبِيُّ ﷺ فَاحِشاً، وَلاَ مُتَفَحِّشاً، وَكَانَ يَقُولُ: إِنَّ مِنْ خِيَارِكُمْ أَحْسَنَكُمْ أَخْلاَقًا» (٣)، وفي حديث آخر يقول الحبيب المصطفى ﷺ: «إن أحبكم إلي وأقربكم مني في الآخرة محاسنكم أخلاقا، وإن أبغضكم إلي وأبعدكم مني في الآخرة مساويكم أخلاقا: الثرثارون المتفيهقون المتشدقون» (٤) .

وأهل الأخلاق الفاضلة الحسنة في أعلى منازل الجنة، يقول ﷺ: «أَنَا زَعِيمٌ بِبَيْتٍ فِي رَبَضِ الجَنَّةِ لمَنْ تَرَكَ المِرَاءَ وَإِنْ كَانَ محُقًّا، وَبِبَيْتٍ فِي وَسَطِ الجَنَّةِ لمَنْ تَرَكَ الْكَذِبَ وَإِنْ كَانَ مَازِحًا، وَبِبَيْتٍ فِي أَعْلَى الجَنَّةِ لمَنْ حَسَّنَ خُلُقَهُ» (٥) .

وحين سئل ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس الجنة قال: «تقوى الله

---

(١) رواه أبو داود – كتاب الأدب – باب في حُسْنِ الْخُلُقِ ص ٦٧٩ (ح٤٧٩٨)، وصححه الألباني .

(٢) آية ١٩٩ من سورة الأعراف .

(٣) رواه البخاري – كتاب المناقب – باب صِفَةِ النَّبِيِّ ﷺ ٤/ ٢٣٠ (ح ٣٥٥٩) .

(٤) رواه الإمام احمد في مسنده ٢٩/ ٢٦٧ (ح ١٧٧٣٢) و صححه الألباني .

(٥) رواه أبو داود – كتاب الأدب – باب فِي حُسْنِ الْخُلُقِ ص ٦٨٠ (ح٤٨٠٠) وحسنه الألباني .

وحسن الخلق»[١] .

وحين يرشدنا ﷺ لحسن اختيار من نرضاه زوجاً لبناتنا يؤكد ﷺ أن أولى الناس بالتزويج هو من حسنت أخلاقه؛ لأن حسن الأخلاق هو الذي يستقيم العيش الهني معه، يقول ﷺ: «إِذَا أَتَاكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ خُلُقَهُ وَدِينَهُ فَزَوِّجُوهُ، إِلاَّ تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ عَرِيضٌ»[٢] .

* * *

(١) رواه الترمذي –كتاب البر والصلة– باب ما جاء في حسن الخلق ص٤٦٢ (ح٢٠٠٤) وقال: هذا حديث صحيح غريب .

(٢) رواه ابن ماجه – كتاب النكاح – باب الأكفاء ص٢٨١ (ح١٩٦٧) وحسنه الألباني.

القــرآن الكريــم

كان من حكمة الله تعالى أن ينزل مع الأنبياء والمرسلين كتباً سماوية هي بيان لأديانهم ومعتقداتهم، وهذه الكتب من كلام الله تعالى، وهي رسالاته للأمم يبلغها أنبياؤه ورسله .

وقد أنزل الله مع إبراهيم الصحف، ومع داود الزبور، ومع موسى الصحف والتوراة، ومع عيسى الإنجيل عليهم جميعاً الصلاة والسلام .

وكان من نعمة الله تعالى أن خص أمة الإسلام أمة محمد ﷺ بأعم هذه الكتب وأشرفها وهو القرآن الكريم .

أهل الإسلام كتابهم القرآن الكريم، فهو دستورهم الذي أمروا باتباعه والعمل به .

والقرآن الكريم ليس كسائر الكتب السماوية السابقة، بل إن من شرف هذه الأمة أمة الإسلام على الله أن شرفهم وخصهم بالقرآن الذي يتميز بخصائص ومميزات ليست في الكتب السابقة .

فمن خصائص هذا الكتاب أنه هو المهيمن على جميع الكتب السابقة ، والمراد بهيمنته على الكتب السابقة أنه شاهد وأمين عليها، ومن هيمنته عليها أنه أعلا منها وأرفع، فقد شهد لها ووافقها، وطابقت أخباره أخبارها، وشرائعه الكبار شرائعها، وأخبرت به وبشرت به، فصار وجوده مصداقا لخبرها .

ومن هيمنته عليها اشتماله على ما في الكتب السابقة قبل تحريفها

وزيادة في المطالب الإلهية والأخلاق النفسية، فهو الكتاب الذي تتبع كل حق جاءت به الكتب فأمر به، وحث عليه، وأكثر من الطرق الموصلة إليه قال الله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾[1] .

ومن خصائص هذا القرآن الكريم أن الله تكفل بحفظه دون سائر الكتب السابقة، فالكتب السابقة وكَّل الله أهلها بحفظها، وجعلها مسؤوليتهم، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ ﴾[2] .

ولكن أهل الكتاب لم يقوموا بما أوجب الله عليهم تجاه كتبهم، فلم يحفظوها، بل طالتها أيادي التغيير والتحريف والتبديل، ولذلك تعددت نسخ هذه الكتب وتضادت وتعارضت، وهو في الأصل كتاب واحد، وأما القرآن الكريم فقد تكفل الله تعالى بحفظه، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾[3] .

---

(١) آية ٤٨ من سورة المائدة .

(٢) من آية ٤٤ من سورة المائدة .

(٣) آية ٩ من سورة الحجر .

وواقع القرآن المجيد خير شاهد، فقد مضى على إنزال القرآن أكثر من ألف وأربعمائة سنة وهو هو كما أنزله الله تعالى لم يتغير منه حرف واحد

وكم حصل من جهود عظيمة وكثيرة وعلى مر التأريخ منذ إنزال القرآن وإلى اليوم تتقصد تحريف القرآن وتغييره ولو بصور بسيطة، ومع ذلك باءت كل هذه المحاولات بالفشل، وما ذلك إلا لأن الله تعالى قد تكفل بحفظه سبحانه .

ومن خصائص القرآن الكريم أن الله تعالى يسر وسهل حفظه وقراءته وفهمته، فلا عسر ولا حرج في ذلك أبدا، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ ﴾[1] .

فكان من خصائص هذا القرآن المجيد أن الجميع يستطيع حفظه الكبير والصغير، والمرأة والرجل، والعربي الذي يفهم معناه، والأعجمي لا يفهم معناه كلهم حين يقبلون على حفظه فهو ميسر لهم .

ولذلك تجد أهل الإسلام يشتغلون كثيراً بهذا القرآن قراءة وتدبراً، وتجد المسلمين يحفِّظون أولادهم وهم صغار القرآن الكريم، وفي واقع المسلمين تجد كثيراً من المسلمين يحفظون القرآن الكريم كاملاً وعن ظهر قلب، بخلاف الديانات الأخرى فلا تجد لهم عناية بحفظ كتبهم، بل ولا عناية بكثرة القراءة فيها .

ومن خصائص القرآن الكريم وما يميزه عن الكتب السابقة أن الله جعل قراءته عبادة يتقرب به إلى الله تعالى، ورتَّب الله على قراءة القرآن

---

(١) آية ١٧ من سورة القمر .

الكريم الأجر العظيم، كما قال النبي ﷺ: «من قرأ حرفا من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول ألم حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف»[١] .

والقرآن الكريم كتاب لا يمل من قراءته ولا استماعه، بل تجدد أرواح المسلمين عند استماعه بلا ملل ولا كلل، وتفرح بتلاوته والاستماع إليه بخلاف كل كلام غيره، فقد يمل القارئ أو السامع عند كثرة سماعه أو قراءته .

ولك أن تتأمل واقع المسلمين حيث يعكفون على القرآن الكريم قراءة وما أن ينتهي أحدهم من قراءته إلا ويبدأ بقراءته من جديد، ويقرؤون الآيات وكأنهم من جدتها يقرؤونها لأول مرة .

والقرآن الكريم من خصائصه أنه يستشفى به فكما أنه شفاء للقلوب من أمراض الشرك والكفر والمعاصي والذنوب، فهو أيضا شفاء للأبدان من الأمراض والأسقام بالرقية على المريض والنفث عليه مع قراءته فيشفى المريض بإذن الله تعالى، كما قال الله تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ ﴾[٢] .

وإذا كان لكل نبي معجزة يتحدى بها قومه ويثبت الله بها صدق نبوته، فإن الله تعالى بحكمته جعل القرآن الكريم هو معجزة محمد ﷺ .

ولإعجاز القرآن الكريم وجوه متعددة: فهو معجز في بلاغته وفصاحته

---

(١) رواه الترمذي – كتاب فضائل القرآن – باب ما جاء فيمن قرأ حرفا من القرآن ما له من الأجر ص٦٥٤ (ح٢٩١٠) وقال: حديث حسن صحيح .

(٢) آية ٨٢ من سورة الإسراء .

حيث كان العرب أهل بلاغة وفصاحة، فأنزل الله القرآن الكريم بأبلغ وأفصح مما يعرفون، بل تحداهم أن يأتوا بمثله ،ثم تحداهم أن يأتوا بعشر سور من مثله، ثم تحداهم أن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا عن ذلك كله، كما قال الله تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾[1] .

والقرآن الكريم معجز في كونه مخاطباً واضحاً لجميع الناس على حد سواء العلماء والعامة، والذكر والأنثى، والمسلم والكافر، ولذلك أمر الله الكفار والمنافقين أن يتدبروا القرآن، قال الله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾[2] .

والقرآن الكريم معجز في أحكامه ومعانيه، فهو شامل لجميع حاجات البشر، متناول لجميع الأحكام بالتأصيل والتفريع، وفي كل شؤون الحياة العقدية والعبادية والأخلاقية والسلوكية والاجتماعية والنفسية والاقتصادية والسياسية ، وفي أحكام علاقة العبد بربه، وعلاقته بنبيه ﷺ، وعلاقته بالآخرين من المسلمين وغير المسلمين، بل وحتى علاقته بالحيوان والنبات والجماد جاء بها القرآن الكريم بأوضح بيان وأجلى صورة، قال الله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ

---

(١) الآيتان ٢٣و٢٤ من سورة البقرة .

(٢) آية ٨٢ من سورة النساء .

وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾[١] .

وهو معجز في أخباره، فقد جاء بأخبار الأمم السابقة لمحمد ﷺ، وقص على النبي محمد ﷺ وعلى أهل الإسلام قصصهم وأخبارهم، مع أن العرب ما كانت أهل كتاب قبل ذلك، فما عرفت هذه الأخبار إلا من القرآن الكريم، كما قال تعالى: ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَاصْبِرْ ۖ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾[٢] .

ومن إعجازه في أخباره إخباره عن حوادث ستحدث في حياة محمد ﷺ أخبر بها قبل وقوعها، ثم وقعت كما أخبر القرآن الكريم عنها، كما في قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ ﴾[٣] .

ومن إعجازه إخباره عن أناس عاشوا في حياة النبي ﷺ، فجاء خبرهم في القرآن أنهم يموتون كفاراً، فكان الأمر كذلك، كما في قصة الوليد بن المغيرة وأبي لهب .

ومن ذلك إخباره عن الغيب، وما يكون يوم القيامة من الجزاء والحساب وصفة الجنة والنار، كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا

(١) من آية ٨٩ من سورة النحل .
(٢) آية ٤٩ من سورة هود .
(٣) الآيتان ٢٧و٢٨ من سورة الفتح .

بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٞ وَمِن فَوۡقِهِمۡ غَوَاشٖۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلّٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ لَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّۖ وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [(١)] .

ولذلك كله وصف الله تعالى هذا القرآن بأجل الأوصاف وأعظمها وأكملها، وما ذلك إلا لعظيم نفعه وبركته وهدايته، فقد سماه ووصفه بالقرآن المجيد، والذكر الحكيم، والقول الفصل بين الحق والباطل، والحق، والكتاب المبين، والذكرى للعالمين، وهو البيان للناس، والهدى، والموعظة، والصراط المستقيم، وهو الرحمة للمؤمنين، وهو النور والبرهان، والكتاب المبارك، وغير ذلك من الأسماء والأوصاف التي سماه و وصفه الله بها و سماه ز وصفه بها النبي ﷺ .

يقول النبي الكريم ﷺ واصفاً عظمة هذا القرآن: «مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلاَّ أُعْطِيَ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ» [(٢)] .

ويقول ﷺ: «القرآن شافع مشفع، وماحل مصدق، من جعله أمامه

(١) الآيات ٤٠- ٤٣ من سورة الأعراف .

(٢) رواه البخاري - كتاب فضائل القرآن - باب كَيْفَ نُزُولُ الْوَحْيِ وَأَوَّلُ مَا نَزَلَ ٦/ ٢٢٤(ح٤٩٨١) .

قاده إلى الجنة، ومن جعله خلفه ساقه إلى النار»[١] .

ويكفي أن الله تعالى وصف هذا القرآن بأنه الهداية الكاملة للتي هي أقوم وأصلح وأعدل في كل الأمور، قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝٩ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٠ ﴾[٢] .

* * *

(١) رواه ابن حبان والبيهقي ، وقال الشيخ الألباني في صحيح الجامع: صحيح .

(٢) الآيتان ٩و١٠ من سورة الإسراء .

النبي محمد بن عبدالله ﷺ

كان من حكمة الله تعالى البالغة أن يبعث إلى الأمم والأقوام رسلاً يوحي إليهم، ويبلغون رسالات الله تعالى لأقوامهم، مبشرين من أطاعهم ومنذرين من عصاهم .

وكان من حكمة الله تعالى البالغة مبعث محمد ﷺ بآخر النبوات وخاتمة الرسالات .

والنبي محمد بن عبدالله ﷺ اختاره الله واصطفاه واجتباه وزكاه لحمل هذه الرسالة الشريفة، فجمع الله سبحانه وتعالى لمحمد ﷺ الكمال البشري الذي لا يدانيه فيه غيره منذ مولده، بل قبل ذلك باختياره من هذا البيت الهاشمي القرشي العربي .

ولد الرسول ﷺ في مكة المكرمة يوم الاثنين من شهر ربيع الأول عام الفيل عام ٥٧١م، من أبوين معروفين: أبوه عبدالله بن عبدالمطلب، وأمه آمنة بنت وهب، سماه جده محمداً ﷺ، وقد مات أبوه قبل ولادته .

وفي الرابعة من عمره أَتَاهُ جِبْرِيلُ ﷺ، وَهُوَ يَلْعَبُ مَعَ الْغِلْمَانِ، فَأَخَذَهُ فَصَرَعَهُ فَشَقَّ عَنْ قَلْبِهِ، فَاسْتَخْرَجَ الْقَلْبَ فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ عَلَقَةً، فَقَالَ: هَذَا حَظُّ الشَّيْطَانِ مِنْكَ، ثُمَّ غَسَلَهُ فِي طَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ بِمَاءِ زَمْزَمَ، ثُمَّ لأَمَهُ ثُمَّ أَعَادَهُ فِي مَكَانِهِ، وَجَاءَ الْغِلْمَانُ يَسْعَوْنَ إِلَى أُمِّهِ - يَعْنِى ظِئْرَهُ أي أمه من الرضاعة - فَقَالُوا: إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ قُتِلَ، فَاسْتَقْبَلُوهُ وَهُوَ مُنْتَقِعُ اللَّوْنِ، قَالَ

أَنَسٌ: وَقَدْ كُنْتُ أَرَى أَثَرَ ذَلِكَ الْمِخْيَطِ فِي صَدْرِهِ [١] .

وعاش ﷺ شبابه في قومه وبلده مكة، فكان معروفاً بينهم بكريم الخصال من العفة والنزاهة والكرم والصدق والأمانة والإعراض عن الدنايا ، فكان النبي ﷺ يتمتع بمكانة خاصة بين قومه، فالجميع يبجلونه ويسمونه بالصادق الأمين، ويرضون به حكما في أشد المواقف نزاعا .

بشَّر الأنبياء السابقون له ببعثته، ودعوا أقوامهم لطاعته إن أدركوه، فما من نبي من الأنبياء قبله إلا ويبشر قومه بمبعث محمد ﷺ، كما قال الله تعالى حكاية عنهم: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [٢].

فهذا عيسى عليه السلام يصف الله رسالته لبني إسرائيل بأنها تصديق لما جاء به موسى عليه السلام قبله وبشارة ببعثة محمد ﷺ، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾﴾ [٣] .

وأخبر الله تعالى أن التوراة والإنجيل قد ذكرا النبي محمداً ﷺ

---

(١) رواه مسلم - كتاب الإيمان - باب الإِسْرَاءِ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَى السَّمَوَاتِ وَفَرْضِ الصَّلَوَاتِ ١/ ١٠١ (ح٤٣١) .

(٢) آية ٨١ من سورة آل عمران .

(٣) آية ٦ من سورة الصف .

وبشرا به، ودعيا بني إسرائيل للإيمان به، كما قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾[1] .

ومما يقرر هذه الحقيقة ما أخبر به بعض رهبان النصارى حين رأوا النبي ﷺ، فوجدوا فيه نفس الأوصاف التي وصفته بها كتبهم .

ولما بلغ محمد ﷺ سن الكمال والرشد وهو الأربعون بعثه الله بالنبوة والرسالة، أرسله الله للعالمين بشيراً ونذيراً ليخرجهم من ظلمات الجهالة إلى نور العلم، وكان ذلك عام ٦١٠ من ميلاد أخيه عيسى عليه السلام.

كانت بعثته رحمة للعالمين حيث أخرج الله به البشرية من الظلمات إلى النور ومن الجهل إلى العلم، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله رب العباد، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، قال الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾[2] .

وقال الله تعالى في وصفه ﷺ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ

(١) آية ١٥٧ من سورة الأعراف .

(٢) آية ١٠٧ من سورة الأنبياء .

مُّبِينٍ ۝٢ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ۝٤ ﴾[1] .

وقال سبحانه: ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝١٦٤ ﴾[2] .

لقد شرفه الله بأعلى الأوصاف البشرية التي أهلته للقيام بمهمته في الدعوة إلى الإسلام وبنجاح عظيم، ولعل من أعظم ما زكاه به ربه سبحانه أخلاقه العظيمة التي فاقت وصف البشر، كما قال تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ ﴾[3] .

جمع الله له الرحمة بالخلق والرأفة بهم وحب الخير لهم، والسعي في إيصاله لهم، والحرص على هدايتهم، فهو في غاية النصح لهم والسعي في مصالحهم، يشق عليه كل ما يشق على أمته، فكان وصفه بالقرآن كما أخبر الله عنه بقوله: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١٢٨ ﴾[4] .

ويذكره ربه بنعمته عليه بأن سبب قبول الناس له وطاعتهم له

---

(١) الآيات ٢ و٣و ٤ من سورة الجمعة .

(٢) آية ١٦٤ من سورة آل عمران .

(٣) آية ٤ من سورة القلم .

(٤) آية ١٢٨ من سورة التوبة .

وإسلامهم معه إنما كان بسبب ما جبله الله عليه من الرفق واللين وحسن الخلق ولين الجانب وخفض الجناح، فلهذه الأخلاق الكريمة أحبوه وامتثلوا أمره ﷺ، قال الله تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ (١) .

ومن قرأ سيرته ﷺ عرف عظمة أخلاقه التي تأسر القلوب وتأخذ بالألباب، فكانت سبباً في حب الناس له وهدايتهم لدين الإسلام .

فقد كان من أخلاقه ﷺ الصدق، والأمانة، والرحمة، والإحسان ، والرفق، والتواضع، والكرم، والجود، والشجاعة، والحياء، والصبر، وحسن القول، والدفع بالتي هي أحسن، وتحمله الخلق وأذاهم، وكظم الغيظ، والحلم، وغيرها .

وسيرته وحياته ﷺ مليئة بالأمثلة الصادقة الدالة على هذه الأخلاق الفاضلة .

يقول الصحابي أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ: «كُنْتُ أَمْشِي مَعَ رَسُولِ الله وَعَلَيْهِ بُرْدٌ نَجْرَانِيٌّ غَلِيظُ الحَاشِيَةِ، فَأَدْرَكَهُ أَعْرَابِيٌّ فَجَبَذَهُ بِرِدَائِهِ جَبْذَةً شَدِيدَةً حَتَّى نَظَرْتُ إِلَى صَفْحَةِ عَاتِقِ رَسُولِ الله ﷺ قَدْ أَثَّرَتْ بِهَا حَاشِيَةُ الْبُرْدِ مِنْ شِدَّةِ جَبْذَتِهِ، ثُمَّ قَالَ: يَا محُمَّدُ مُرْ لِي مِنْ مَالِ الله الَّذِي عِنْدَكَ، فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ رَسُولُ الله ﷺ، ثُمَّ ضَحِكَ، ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِعَطَاءٍ» (٢) .

(١) آية ١٥٩ من سورة آل عمران .

(٢) رواه البخاري – كتاب اللباس – باب الْبُرُودِ وَالحِبَرَةِ وَالشَّمْلَةِ ٧/ ١٨٩ (ح٥٨٠٩) . ومسلم – كتاب الزكاة – باب إِعْطَاءِ مَنْ سَأَلَ بِفُحْشٍ وَغِلْظَةٍ ٣/ ١٠٣ (ح٢٤٧٦) .

ويصفه عبدالله بن عباس رضي الله عنهما بقوله: «كان رسول الله ﷺ أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان يلقاه في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن، فلرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة» (١) .

ويحدث أنس بن مالك رضي الله عنه عن مزاحه ﷺ ومداعبته وملاطفته للأطفال الصغار فيقول: «إِنْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ لَيُخَالِطُنَا حَتَّى يَقُولَ لأَخٍ لِي صَغِيرٍ: يَا أَبَا عُمَيْرٍ مَا فَعَلَ النُّغَيْرُ» (٢)، وفي رواية مسلم يقول أنس: «كان ﷺ أَحْسَنَ النَّاسِ خُلُقًا، وَكَانَ لِي أَخٌ يُقَالُ لَهُ أَبُو عُمَيْرٍ - قَالَ أَحْسِبُهُ قَالَ - كَانَ فَطِيماً - قَالَ - فَكَانَ إِذَا جَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَرَآهُ قَالَ: أَبَا عُمَيْرٍ مَا فَعَلَ النُّغَيْرُ» قَالَ: فَكَانَ يَلْعَبُ بِهِ» (٣) .

والنبي محمد بن عبدالله ﷺ هو أفضل أنبياء الله وأحبهم إلى الله تعالى أقر له بهذا، ويشهد به سائر إخوانه من الأنبياء والمرسلين، وذلك يوم القيامة يوم يقوم الناس لرب العالمين «يجمع الناس الأولين والآخرين في صعيد واحد يسمعهم الداعي، وينفذهم البصر، وتدنو الشمس، فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون،

---

(١) رواه البخاري - كِتَاب بَدْء الْوَحِي - ١/ ٥ (ح٦) .
ومسلم - كتاب الفضائل - باب كَانَ النَّبِي ﷺ أَجْوَدَ النَّاسِ بِالْخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ ٧/ ٧٣ (ح٦١٤٩) .

(٢) رواه البخاري - كتاب الأدب - باب الاِنْبِسَاطِ إِلَى النَّاسِ ٨/ ٣٧ (ح٦١٢٩) .

(٣) رواه مسلم - كتاب الآداب - باب اسْتِحْبَابِ تَحْنِيكِ الْمَوْلُودِ عِنْدَ وِلاَدَتِهِ وَحَمْلِهِ إِلَى صَالِحٍ يُحَنِّكُهُ، وَجَوَازِ تَسْمِيَتِهِ يَوْمَ وِلاَدَتِهِ، وَاسْتِحْبَابِ التَّسْمِيَةِ بِعَبْدِ اللَّهِ وَإِبْرَاهِيمَ وَسَائِرِ أَسْمَاءِ الأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلاَمُ ٦/ ١٧٦ (ح٥٧٤٧) .

فيقول الناس: ألا ترون ما قد بلغكم، ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم، فيقول بعض الناس لبعض: عليكم بآدم، فيأتون آدم عليه السلام، فيقولون له: أنت أبو البشر خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه، ألا ترى إلى ما قد بلغنا، فيقول آدم: إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله وإنه نهاني عن الشجرة فعصيته، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى نوح، فيأتون نوحا، فيقولون: يا نوح إنك أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وقد سماك الله عبدا شكورا، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه، فيقول: إن ربي عز وجل قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه قد كانت لي دعوة دعوتها على قومي، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى إبراهيم، فيأتون إبراهيم، فيقولون: يا إبراهيم أنت نبي الله وخليله من أهل الأرض، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه، فيقول لهم: إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإني قد كنت كذبت ثلاث كذبات - فذكرهن أبو حيان في الحديث -، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى موسى، فيأتون موسى، فيقولون: يا موسى أنت رسول الله فضلك الله برسالته وبكلامه على الناس، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه، فيقول: إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإني قد قتلت نفسا لم أؤمر بقتلها، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى عيسى، فيأتون عيسى، فيقولون: يا عيسى أنت

رسول الله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وكلمت الناس في المهد صبيا اشفع لنا، ألا ترى إلى ما نحن فيه، فيقول عيسى: إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله - ولم يذكر ذنبا -، نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى محمد ﷺ، فيأتون محمدا ﷺ، فيقولون: يا محمد أنت رسول الله، وخاتم الأنبياء، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه، فأنطلق فآتي تحت العرش، فأقع ساجدا لربي عز وجل، ثم يفتح الله علي من محامده وحسن الثناء عليه شيئا لم يفتحه على أحد قبلي، ثم يقال: يا محمد ارفع رأسك، سل تعطه، واشفع تشفع، فأرفع رأسي، فأقول: أمتي يا رب أمتي يا رب، فيقال: يا محمد أدخل من أمتك من لا حساب عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنة، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب، ثم قال: والذي نفسي بيده إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة كما بين مكة وحمير، أو كما بين مكة وبصرى»[(١)].

ومن شرف هذا النبي عند ربه سبحانه وتعالى أن خصه وأمته بشمائل ومكارم لم تكن لنبي قبله ولا لأمة من الأمم قبله .

فهو أفضل الأنبياء بشهادة الأنبياء كما تقدم .

فهو خاتم الأنبياء، قال تعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ

(١) رواه البخاري - كتاب المغازي - باب ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبدا شكوراً ٦/ ١٠٥ (ح٤٧١٢) .
ومسلم - كتاب الإيمان - باب أَدْنَى أَهْلِ الجَنَّةِ مَنْزِلَةً فِيهَا ١/ ١٢٣ (ح٤٩٥) .

وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾[١] .

وهو أكثر الأنبياء تابعاً ومؤمناً به يوم القيامة، وهو أول من يقرع باب الجنة، وهو أول شفيع فيها، يقول ﷺ: «أنا أكثر الأنبياء تبعاً يوم القيامة، وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ يَقْرَعُ بَابَ الجْنَّةِ» [٢]، ويقول ﷺ: «أَنَا أَوَّلُ شَفِيعٍ فِي الجْنَّةِ، لمَ يُصَدَّقْ نَبِيٌّ مِنَ الأَنْبيَاءِ مَا صُدِّقْتُ، وَإِنَّ مِنَ الأَنْبيَاءِ نَبِيًّا مَا يُصَدِّقُهُ مِنْ أُمَّتِهِ إِلاَّ رَجُلٌ وَاحِدٌ» [٣] .

وقد وعده ربه أن يريه في أمته خيراً، وأن يرضيه في أمته، ففي الحديث أنه ﷺ ذكر أحوال بعض الأنبياء مع أممهم، ثم رَفَعَ يَدَيْهِ وَقَالَ: «اللَّهُمَّ أُمَّتِي أُمَّتِي» وَبَكَى، فَقَالَ اللهُّ عَزَّ وَجَلَّ: يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ إِلَى محُمَّدٍ، وَرَبُّكَ أَعْلَمُ فَسَلْهُ مَا يُبْكِيكَ، فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ، فَسَأَلَهُ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللهَّ ﷺ بِمَا قَالَ، وَهُوَ أَعْلَمُ، فَقَالَ اللهُّ: يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ إِلَى محُمَّدٍ، فَقُلْ: إِنَّا سَنُرْضِيكَ في أُمَّتِكَ وَلاَ نَسُوءُكَ» [٤].

وفضَّله الله على إخوته الأنبياء بستة أمور بيَّنها هو ﷺ بقوله: «فُضِّلْتُ عَلَى الأَنْبيَاءِ بِستٍّ: أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ، وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ، وَجُعِلَتْ لِي الأَرْضُ طَهُوراً وَمَسْجِدًا، وَأُرْسِلْتُ إِلَى الخَلْقِ كَافَّةً،

---

(١) آية ٤٠ من سورة الأحزاب .

(٢) رواه مسلم - كتاب الإيمان - باب في قَوْلِ النبي ﷺ:» أَنَا أَوَّلُ النَّاسِ يَشْفَعُ في الجْنَّةِ وَأَنَا أَكْثَرُ الأَنْبيَاءِ تبَعاً«١/ ١٣٠ (ح٥٠٥) .

(٣) رواه مسلم - كتاب الإيمان - باب في قَوْلِ النبي ﷺ:» أَنَا أَوَّلُ النَّاسِ يَشْفَعُ في الجْنَّةِ وَأَنَا أَكْثَرُ الأَنْبيَاءِ تبَعاً« ١/ ١٣٠ (ح٥٠٦) .

(٤) رواه مسلم - كتاب الإيمان - باب دُعَاءِ النَّبي ﷺ لأُمَّتِهِ وَبُكَائِهِ شَفَقَةً عَلَيْهِمْ ١/ ١٣٢ (ح٥٢٠) .

وَخُتِمَ بي النَّبِيُّونَ»[١] .

وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعث الله محمداً ﷺ للخلق كافة، كما قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾[٣] .

ومن كرامته على الله تعالى أن جعل الله أمته خير الأمم، كما قال الله تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾[٤] يقول ﷺ: «أعطيت ما لم يعط أحد من الأنبياء، فقلنا: يا رسول الله ما هو ؟ قال: نصرت بالرعب، وأعطيت مفاتيح الأرض، وسميت أحمد، وجعل التراب لي طهوراً، وجعلت أمتي خير الأمم»[٥] .

عاش النبي ﷺ ثلاثاً وعشرين سنة نبياً رسولاً حتى توفاه الله تعالى، وكان في هذه السنين قائماً بما أمره به من تبليغ الرسالة والدعوة إلى الله، فما مات ﷺ إلا وقد بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق جهاده، وما مات ﷺ إلا وقد ترك أمته على المحجة البيضاء ليلها

---

(١) رواه مسلم – كتاب المساجد – باب١ ٢/ ٦٤ (ح١١٩٥) .

(٢) آية ٢٨ من سورة سبأ .

(٣) آية ١٥٨ من سورة الأعراف .

(٤) من آية ١١٠ من سورة آل عمران .

(٥) رواه الإمام أحمد في المسند ٢/ ٤٦١ (ح١٣٦١)، وحسنه الشيخ شعيب الأرناؤوط .

كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك، وما مات ﷺ وفى بلاد العرب كلها موضع إلا ودخله الإسلام .

أمر المؤمنين به أن يعرفوا قدره، ويعلو منزلته، ويقوموا بحقه من غير غلو يقيمه مقام الرب سبحانه، فقد كان هو ﷺ ينهاهم عن ذلك، فقد كان من وصيته ﷺ لأتباعه أن قال لهم: «لاَ تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ، فَقُولُوا: عَبْدُ الله وَرَسُولُه» (١) .

واستجاب المؤمنون برسالته لدعوة ربهم بعظيم حبهم له ونصرته والدفاع عنه، بل وتقديمه على أنفسهم وأولادهم وأموالهم، وضرب أصحابه المثل الرائع في ذلك .

ومن عظمة هذا الدين أن الله أمر أتباعه بمعرفة حق النبي ﷺ، وشرع لهم عبادات فيها تعظيم للنبي ﷺ وأداء لحقه .

ومن ذلك أنه لا يتحقق إسلام عبد حتى يشهد بنبوة محمد ﷺ، فكان الإسلام متحققاً بالشهادتين: الشهادة لله بالوحدانية ووجوب إفراده بالعبادة: أشهد أن لا إله إلا الله، والشهادة لمحمد بالنبوة والرسالة وما ينبني عليها من وجوب طاعته واتباعه، وألا يعبد الله إلا بما شرعه ﷺ: أشهد أن محمداً رسول الله .

ومن ذلك وجوب محبته ﷺ، بل والمحبة العظيمة التي يكون بها ﷺ أحب على الإنسان من نفسه وأهله وماله وولده، فلا يقدم محبة أحد من

---

(١) رواه البخاري - كتاب أحاديث الأنبياء - باب وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا ٤/ ٢٠٤ (ح٣٤٤٥) .

الخلق على محبته ﷺ، وبهذا يتحقق الإيمان، كما قال ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده، وولده، والناس أجمعين»(١).

ومن ذلك أن الله سبحانه وتعالى أخبر أنه يصلي عليه هو وملائكته، ويأمر الله أمة الإسلام بالصلاة والسلام عليه، قال الله تعالى آمراً الأمة بذلك: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴿٥٦﴾ ﴾(٢).

كما أن الله تعالى أمر أهل الإسلام بطاعته ﷺ واتباع سنته، وجعل ذلك علامة لمحبتهم لربهم، وأن من أطاع محمداً ﷺ فقد نال محبة الله تعالى، قال تعالى: ﴿ قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٣١﴾ ﴾(٣).

وقرن الله تعالى وجوب طاعة النبي ﷺ بوجوب طاعته هو سبحانه، قال تعالى: ﴿ قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾(٤).

فاللهم صل وسلم وزد وبارك على عبدك وحبيبك ورسولك ونبيك محمد بن عبدالله وعلى آله وصحبه، واللهم ارزقنا اتباع سنته، وأوردنا حوضه وأنلنا شفاعته، وأدخلنا الجنة معه آمين.

---

(١) رواه البخاري - كتاب الإيمان - بَابٌ حُبُّ الرَّسُولِ ﷺ مِنَ الإِيمَانِ ١/ ١٠ (ح ١٥).
ومسلم - كتاب الإيمان - باب وُجُوبِ مَحَبَّةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَكْثَرَ مِنَ الأَهْلِ وَالْوَلَدِ وَالْوَالِدِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، وَإِطْلاَقِ عَدَمِ الإِيمَانِ عَلَى مَنْ لَمْ يُحِبَّهُ هَذِهِ الْمَحَبَّةَ ١/ ٤٩ (ح١٧٨).
(٢) آية ٥٦ من سورة الأحزاب.
(٣) آية ٣١ من سورة آل عمران.
(٤) آية ٣٢ من سورة آل عمران.

الفهـــرس

الموضوع | الصفحة

المقدمـــة ٥
الإسلام دين رباني المصدر ٧
الإسلام الدين الحق ١١
الإسلام الدين الواضح ١٧
الإسلام دين الفطرة ٢٢
الإســلام ديــن العقــل ٢٧
الإسلام الدين المعصوم ٣٣
الإسلام دين الرحمة ٣٩
الإسلام الدين الوسط ٤٧
الإسلام دين المصالح ٥٧
الإسلام دين اليسر والسماحة ٨٠
الإســلام ديــن العــدل ٨٨
الإســلام ديــن الأخــلاق ٩٤
القـــرآن الكريـــم ٩٩
النبي محمد بن عبدالله ﷺ ١٠٧
الفهـــرس ١١٩

* * *